

الليبرالية

مقدمة نظرية

ربما أصبحت مصطلحات الليبرالية، الدولة المدنية، العلمانية من أكثر ما تردده الألسنة اليوم في وسائل الإعلام المختلفة... وإذا كان معنى مصطلح هو ما اتفق الناس على معناه.. أو حرفياً ما اصطلاح الناس على معناه، ففي الحقيقة لا ينطبق ذلك تمامًا على تلك المصطلحات الثلاثة، وخاصة أولها الليبرالية الذي اختلف معناه باختلاف الزمان والمكان. قيل الكلمة في الأساس اشتقاق من الكلمة اللاتينية «Liber» وتعني «حر»، وقيل تلك الكلمة استخدمت لأول مرة في مطلع القرن التاسع عشر عندما أطلقت على أحد الأحزاب السياسية في إسبانيا، وقد انقسمت لعدة معانٍ فرعية أو مجالات، فمنها الليبرالية السياسية، والليبرالية الثقافية، والليبرالية الاقتصادية وإن تقاطعت مع بعضها. وتطورت الأخيرة من الليبرالية الكلاسيكية (التقليدية) إلى الليبرالية الحديثة «New Liberalism»، ثم بعد ذلك الليبرالية الجديدة «Neo Liberalism»، والتي تقدر السوق والذي صار كما لو كان مفتاح الحياة ومصدر كل قوانينها. واختلفت معاني كل ذلك بين أوروبا والولايات المتحدة، والتي تحمل كلمة ليبرالية فيها معنى من الاستخفاف إن لم يكن الازدراء، باستثناء الساحل الشرقي والساحل الغربي، أما بقية الولايات المتحدة، والتي يمكن تسميتها «حزام الكتاب المقدس - Bible Belt» فلا يتفاخر فيها أحد بأنه ليبرالي، وكان ريجان ليبرالياً من الناحية الاقتصادية على طريقة النيوليبرالية «Neo Liberalism» ومحافظ من الناحية الثقافية

أو الأخلاقية، وكذلك جورج بوش الابن، وكل منهما حكم ٨ سنوات^(١) ويقول البعض: «إن مصطلح الليبرالية هو مرادف لمصطلح المذهب الفردي أو النزعة الفردية «Individualism».. تحولت الليبرالية من فلسفة كانت توصف في البداية بأنها أيديولوجية الطبقة الوسطى، إلى فلسفة مجتمع قومي مثله الأعلى رعاية مصالح الطبقات المالكة^(٢)».

وقبل أن نُلمّ بقليل من التفاصيل، علينا أن نتفق أن كلمة التحرر في اللغة العربية تعني التحرر من قيود أو سُلطة - سواء كانت سياسية/ اقتصادية/ مالية في صورة قوانين، أو التحرر من أفكار، أو علاقات وأوضاع اجتماعية ضارة ومؤذية، أو على الأقل غير مفيدة، ومفروضة، ثبت عدم صلاحيتها وفائدتها لمصالح الناس أو رغباتهم وسعادتهم. ومن هنا يمكننا أن نتوقع أن يتمتع المصطلح بحيوية تجديدية، ترمى دائماً بالقديم الضار لصالح الجديد النافع، أو حتى القديم غير المرغوب فيه إلى الجديد

(١) جاء في قاموس «برويرزبوليتيكس» عن الليبرالي: شخص على يسار الوسط، يؤيد تدخل الحكومة في الاقتصاد، ويعارضه في المسائل الأخلاقية، وهو لفظ ازدرائى لمن لديهم نظرة طيبة خيرة للطبيعة الإنسانية، وقد تُستخدم كنوع من السب مثلما استخدمه جورج بوش [الأب] ضد مايكل دوكاكيس في انتخابات ١٩٨٨، وكان ريجان يُطلق على الليبرالية «كلمة إل - The L Word»، [فى ازدراء بمقارنتها بيساري Leftist] بينما قال جيمس واط وزير داخلية ريجان: أنا لا أستخدم كلمتي جمهورى وديمقراطى، بل هى أمريكى وليبرالى - من منشورات كاسل ١٩٩١، صفحة ٣٤٥.

وعندما تعرضت الولايات المتحدة من نهاية ستينيات القرن الماضى لعقد عاصف من الاضطرابات: ارتفاع معدل الجريمة، وانتهاك القانون بصفة عامة وعدم احترامه ولا احترام السلطة العامة، والاعتراض العام على حال المجتمع والسياسة العامة والتقاليد الأمريكية، قال نيكسون وبوكانان: التساهل الليبرالى أصل كل شر - ضمير ليبرالى - پول كروجران، من منشورات العيكان، ٢٠٠٩، صفحة ٩٦، ٩٧.

(٢) موسوعة العلوم السياسية - جامعة الكويت، طبعة ١٩٩٣ - ١٩٩٤ الجزء الأول، صفحة ٤١٠.

المرغوب فيه، فكلما استقر حال أصبح ضارًا، وجب التحرر منه إلى جديد .
نافع أو جالب للسعادة و/ أو المصلحة. ولكن من هنا أيضًا يمكن أن نتوقع
الخلافاً على ما هو الضار وما هو النافع والجالب للسعادة، ولمن هو ضار أو
نافع جالب للسعادة، فمثلاً **ترفض الليبرالية الثقافية منع المرغوب فيه حتى**
لو كان بعض أنواع المخدرات والجنس خارج الزواج، أو زواج المثليين.

قالت موسوعة بريتانیکا الموجزة عن الليبرالية:

الليبرالية هي مذهب سياسى اقتصادى يؤكد حقوق وحریات
الأفراد، والحاجة لتحديد سلطات الحكومة. نشأت الليبرالية كرد
فعل دفاعى لرعب حروب أوروبا الدينية فى القرن السادس عشر^(٣)
(انظر: حروب الثلاثين عامًا). وصاغت أعمال **توماس هوبز** و**جون**
لوك الأفكار الرئيسية لليبرالية، فقالا إن سلطة الملوك تقوم على رضا
المحكومين فى العقد الاجتماعى المقترض بين الطرفين، وليس على
الحق الإلهى للملوك فى الحكم^(٤). وفى المجال الاقتصادى، طالب

(٣) تلك الحروب التى نشأت بين الكاثوليك والبروتستانت، بعد ظهور مارتن لوتر وصيخته
المشهورة: **البابا عدو المسيح**. وقابل ذلك قول الكنيسة الكاثوليكية: **لا خلاص خارج الكنيسة**.
(٤) سيطرت هذه الفكرة على أوروبا حتى قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٧ - ١٧٨٩)، واستمرت
بعدها حتى نهاية القرن التاسع عشر - وبعد أن قضت الأنظمة المستبدة فى أوروبا على ثورة
١٨٤٨ التى اجتاحت أوروبا - خاصة فى فرنسا نفسها وفى ألمانيا، ولكن بدون السيطرة
السابقة، وأساسها بعض نصوص الكتاب المقدس مثل رسالة بولس لروما (الإصحاح
١٣: ١-٢)، ورسالة بطرس الأولى (الإصحاح ٢: ١٣-١٤)، وأقوال بعض آباء الكنيسة،
مثل مارسيليو البادوى، وهناك فى الكنيسة آراء أخرى تقول بوجود خضوع الدولة
للكنيسة، بدأت مبكرًا منذ أقوال أوجوستين (٣٥٤-٤٣٠)، والبابا جلاسيوس الأول فى
القرن الخامس، والبابا جريجورى السابع فى القرن ١١، وتوما الإكويني (١٢٠٠-١٢٧٤)
مما أدى للصراع المشهور بين الباباوات من جانب والأباطرة والملوك من جانب آخر.

الليبراليون في القرن التاسع عشر بوقف تدخل الدولة في الاقتصاد. قال آدم سميث إن الأنظمة الاقتصادية التي تقوم على فكرة الأسواق الحرة، أكثر كفاءة وتثمر رخاء أوسع من التي تتحكم فيها - جزئيًا - الحكومات. ولكن لما تسبب ذلك في الفجوة الكبيرة بين الأثرياء والفقراء - خاصة بعد الثورة الصناعية - في أوروبا وأمريكا الشمالية، طالب الليبراليون في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بتدخل محدود للحكومة في الأسواق، وأن توفر الحكومة خدمات اجتماعية مثل التعليم العام المجاني، والتأمين الصحي. وجسد ذلك - في أوسع أشكاله - برنامج «الصفقة الجديدة» - New Deal الذي طبقه الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت [بعد أزمة ١٩٢٩]، حين وسع أنشطة الحكومة الاقتصادية، ووضع الكثير من القيود التي تنظم عالم الأعمال، وصار ذلك نموذجًا لليبرالية الجديدة أو الحديثة [New Liberalism]. توسع تدخل الدولة بعد الحرب العالمية الثانية في كل من بريطانيا والدول الإسكندنافية والولايات المتحدة، وظهرت فيها البرامج الاجتماعية لدولة الرفاهية. أدى «جمود» - Stagnation - الاقتصاد في أواخر السبعينيات لإحياء الليبرالية الكلاسيكية (التقليدية) التي تنادى بالأسواق الحرة، وخاصة بين المحافظين في بريطانيا والولايات المتحدة^(٥).

طبعة ٢٠٠٦، صفحة ١١٠٨.

(٥) مثل رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر والتي كانت تقول لا يوجد شيء اسمه مجتمع، ورونالد ريغان الذي كان يقول أخطر شيء على أمريكا هو الحكومة الكبيرة، ويقول أيضًا في نفس الوقت إن في الكتاب المقدس حل لكل مشاكل أمريكا.

ولكن كيف حمل المحافظون - الأعداء التقليديون للبراليين - لواء
«النيوليبرالية» (الليبرالية المعاصرة) - «Neo Liberalism»؟

قبل اقتفاء أثر تلك المراوغة، أو ذلك المصطلح المراوغ، يجدر بنا أن
نتعرف قليلاً على المذهب المحافظ.

جاء في موسوعة بريتانیکا تحت عنوان «Conservatism»:

أيديولوجيا لأعراف وممارسات تطورت تاريخياً بشكل
فيه استمرارية واستقرار [المقصود ليس راديكالياً أو جذرياً].
أول من صاغ أفكارها في العصر الحديث إدmond بيرك كرد فعل
على الثورة الفرنسية [١٧٨٧ - ١٧٨٩]، والتي يعتقد بيرك أنها
أفسدت مثالياتها بتجاوزاتها. يعتقد المحافظون أن التغيير يجب أن
يتم ببطء وبالتدريج، ويعتبرون بالتاريخ، وهم أكثر واقعية من
المثاليين. من الأحزاب المحافظة المعروفة^(٦): الحزب البريطاني
- اتحاد الديمقراطيين المسيحيين الألماني، الحزب الجمهوري
الأمريكي. انظر أيضاً الديمقراطية المسيحية، الليبرالية.

نعود لموسوعة العلوم السياسية، فنجد أنها تقول:

تعرضت الليبرالية وكذلك المذهب الفردي لتفسيرات
متعددة - كما سبقت الإشارة - نتيجة للتطورات التي مر بها
النظام الرأسمالي. فقد مرت الليبرالية - حتى عام ١٩٢٠
تقريباً - بمرحلتين متميزتين يمكن إيجاز أهم سماتها فيما يلي:

(٦) بصفة عامة، حكمت الأحزاب المحافظة في أوروبا (بريطانيا وألمانيا وفرنسا) والولايات
المتحدة فترات أطول مما حكمت الأحزاب الليبرالية.

المرحلة الأولى: وسادها ما يُعرف بالراديكالية الفلسفية،
 أى تلك المفاهيم المبكرة لمذهب المنفعة بقوانينه وسياساته
 المستمدة من مبدأ «أعظم سعادة لأكبر عدد» الذى وضعه
 الاقتصادى الإنجليزى جيريمى بنتام فى كتابه «نبذة عن
 الحكم» عام ١٧٧٦، وقصد به تقديم مبدأ أخلاقى جديد
 كمعيار للقيمة وللتفرقة بين الخير والشر. أما الجانب
 الاقتصادى للبرالية فقد تمثل فى **نظرية الاقتصاد الكلاسيكى**
 المستمدة من كتاب «ثروة الأمم» لأدم سميث عام ١٧٧٦،
 والتى أعاد شرحها بإسهاب دافيد ريكاردو فى كتابه
 «الاقتصاد السياسى» عام ١٨١٧، وخلاصتها هى الحرية
 الاقتصادية غير المقيدة، وتعنى فى التطبيق إضفاء القداسة على
 الملكية الفردية، والأخذ بمبدأ «دعه يعمل، دعه يمر» السابق
 ذكره^(٧). تفترض تلك المفاهيم سوقاً تسودها المنافسة الحرة
 ويعمل فيها كل مُتَبِعٍ وفقاً لما تمليه عليه مصلحته الشخصية.
 لكن سعيه هذا يؤدى بالتبعية إلى خدمة مصالح الآخرين كما
 لو كان هذا يتم بفعل يد خفية - على حد تعبير آدم سميث -
 مما يؤدى إلى تحقيق الانسجام الاجتماعى.

دعه يعمل دعه يمر

(٧) ظهرت هذه الأفكار فى شكل ثورة فكرية على أوضاع أوروبا الإقطاعية، والتى كان «عبيد الأرض - Serfs» يمثلون الأغلبية الكاسحة من عدد سكانها، ولم يكن لأى منهم أن يغادر الأرض التى يعمل بها إلا إذا أذن له سيده، وكانت التجارة العامة مكبلة بقوانين ملكية وبرلمانية، تعطى امتيازات احتكارية لقلّة قليلة من التجار، ولم يكن هناك ملكية خاصة كما نعرف اليوم، فكل الأراضى تعود ملكيتها للملوك والأمراء، والكنيسة ذات الحظ الأوفر من الأراضى.

على الصعيد السياسى، كانت مفاهيم الراديكالية الفلسفية للمذهب الفردى تعنى فى التطبيق امتناع الدولة نهائياً عن التدخل فى النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، واقتصار دورها على ¹الدفاع ضد العدوان الخارجى ²وحفظ الأمن الداخلى ³ وتنفيذ العقود التجارية والصناعية. أى أنه ليس من صلاحياتها بأى حال دعم التعليم العام أو وضع سياسات للمحافظة على الصحة العامة أو تقديم أية مساعدات اقتصادية أو خيرية من أى نوع كان، انطلاقاً من موقف المذهب الفردى بأن أى تدخل حكومى هو اعتداء على الحرية. وقد سجّلت هذه المفاهيم الفردية أكبر انتصاراتها التشريعية فى إنجلترا قبيل منتصف القرن التاسع عشر وذلك بإلغاء قوانين القمح، وانتهاج سياسة حرية التجارة عام ١٨٤٦، والتوسع الصناعى المتحرر من كل قيد ^(٨).

المرحلة الثانية: وتسمى الليبرالية المحدثه [الجديدة - **New Liberalism**] تتسم بأنها كانت بمثابة رد فعل على النتائج الاجتماعية المدمرة لحرية التصنيع غير المنظمة والطيقة من أية رقابة. ويمكن الوقوف على الحالة التعسة التى عانت منها قطاعات واسعة من الشعب الإنجليزى

(٨) جدير بالذكر هنا أن بريطانيا والولايات المتحدة من أكثر دول العالم اتباعاً لأساليب الحماية الاقتصادية، قديماً وحديثاً، ويمكن الرجوع لكتاب «ركل السلم بعيداً» د. تشانج، من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

في ظل الرأسمالية من التقرير الرسمي الذي رفعته لجنة ملكية إلى البرلمان عام ١٨٤١، ووصفت فيه الأوضاع في مجال الصناعة بأنها وحشية غير إنسانية، وأشارت بصفة خاصة إلى الأوضاع البشعة لعمال المناجم وتشغيل النساء والأطفال لساعات عمل طويلة وانعدام وسائل الأمان داخل المصانع وانحيار المستويين الصحي والأخلاقي بدرجة تبعث على الاشتمزاز. وقد استجاب البرلمان للضغط فبدأ يتدخل تدريجياً بوضع تشريعات تحد من ساعات العمل المرهقة وتخفف من الظروف الصعبة في المصانع وترفع الأجور المتدنية^(٩).

يمثل تدخل البرلمان بإصداره هذه التشريعات اتجاهاً جديداً يتعارض مع مفاهيم الليبرالية المبكرة [التقليدية]. وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته بإقدام البرلمان الإنجليزي في نهاية الربع الثالث من القرن التاسع عشر على نبذ الاتجاه المغالي فيه للمذهب الفردي، والأخذ بنوع من المذهب الجماعي «Collectivism» وإصدار تشريع عن الرفاهية الاجتماعية. وكان لا بد من هذه الإصلاحات لحماية أمن النظام الرأسمالي، وضمان الاستقرار السياسي الذي تعرضت أسسه للاهتزاز نتيجة لفوضى الإنتاج التي تصاحب النظام الفردي الحر، وعدم

(٩) تصور روايات تشارلز ديكنز أحداث بريطانيا في تلك الفترة، وكذلك يصور كتاب «كيف يعيش النصف الآخر - How the other half lives» لجاكوب ريس أحوال نيويورك في نهاية القرن التاسع عشر.

توافر الضمانات المتعددة اللازمة لحركة التصنيع الواسعة. وقد تجلت مظاهر الخلل المبكرة للنظام في أول أزمة اقتصادية كبرى عام ١٨٢٥، ثم أول انتفاضة عمالية منظمّة في مدينة لايدن بهولندا فيما بين أعوام ١٨٣٨ - ١٨٤٢، ولجوء عمال باريس إلى الصراع المسلح ضد البرجوازية عام ١٨٣٨ ثم في عام ١٨٧١، وكذلك الثورات العارمة خلال عامي ١٨٣٠، ١٨٤٨، وكلها مؤشرات اقتضت التحرك السريع لتخفيف الاستغلال الواقع على قطاعات واسعة من الشعب وامتصاص موجات الغضب والسخط بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية المشار إليها. ويمكن تلخيص الاعتبارات السابقة التي أفرزت الليبرالية الحديثة [الجديدة - New Liberalism] في النقاط التالية:

- سخط المزارعين بسبب سياسة حرية التجارة وما ترتب عليها من تضحية بمصالحهم في سبيل انتعاش التجارة والصناعة، فاضطر البرلمان إلى التدخل لإعادة نوع من الحماية لحاصلاتهم.

- تصاعد أهمية الاعتبار الأخلاقي؛ إذ تولدت مشاعر الاشتمزاز والنفور بعد كشف الفظائع والظروف المعيشية غير الإنسانية التي يعاني منها عمال الصناعة في النظام الرأسمالي.

- إفلاس القيم المبكرة للمذهب الفردي وسقوط مصداقيته ومفاهيمه القائمة على حجج المصلحة الذاتية، والمنفعة، والحرية الاقتصادية المطلقة.

هكذا كان على الليبرالية أن تجدد ثوبها حتى تستطيع البقاء، وتحتّم على مفكرها إعادة تقويم واسعة لطبيعة الدولة ووظائفها، ومفهوم الحرية، والعلاقة بين الحقوق والالتزام القانوني، أى إعادة تقويم كبيرة لعلاقة الفرد بالمجتمع والسلطة السياسية بحثًا عن مفاهيم أكثر عدالة وإنسانية تتفق مع التيار السائد فى علوم الاجتماع والأخلاق. وقد اتخذت محاولات تحديث الليبرالية شكل موجتين عبرت عن الأولى الفلسفة السياسية لكل من جون ستيورات ميل، وهيربرت سبنسر رغم تعارضهما فى بعض النواحي، بينما عرفت الثانية باسم فلسفة المثاليين من رجال مدرسة أكسفورد التى عبرت عنها بصفة خاصة الفلسفة السياسية لتوماس جرين الذى ظلت آراؤه تحتفظ بتأثير كبير فى الفترة ما بين عامى ١٨٨٢ - ١٩٢٠. وخلافًا للشك التقليدى فى الدولة الذى عبرت عنه الليبرالية المبكرة [التقليدية] المتطرفة فى محاصرتها لصلاحيات الدولة، فإن ليبرالية جرين أو الليبرالية المحدثّة [الحديثة] المتأثرة بهيجل والمدرسة المثالية الألمانية كانت قبولًا صريحًا بالدولة كمؤسسة إيجابية تضع التشريعات لدعم الحرية بمفهومها الليبرالى، وخاصة حرية الملكية الفردية، لكن مع وضع بعض القيود على التصرفات الرأسمالية التى أشاعت الغضب وعدم الاستقرار فى المرحلة السابقة، وهددت أمن واستقرار النظام، ولهذا اعتبر جرين أن تفهم الحرية بأسلوب أوسع أفقًا وأكثر أخلاقية يبرر هذه القيود.

لإيجاز ما سبق، وخاصة من المنظور السياسى منذ ثورة ١٦٨٨^(١٠)، فإن الملكية الدستورية التى ظهرت فى إنجلترا بعد إصدار وثيقة الحقوق عام ١٦٨٩ كانت حلًّا وسطًا مع النظام الإقطاعى القديم وما تخلف عنه من ممارسات وامتيازات. وفى ظل هذا الشكل من الحكم، لم يكن يستطيع أن يدخل الانتخابات إلا كبار الملاك الذين يمتلكون حدًّا أدنى من زمام الأراضى أو يمكنهم دفع ضرائب معينة. ثم ظهر تدريجيًّا نمط جمهورية دافعى الضرائب فى أوروبا الذى كان ملائمًا لتطور النظام الرأسمالى؛ حيث تمت تصفية البقايا الشكلية الموروثة من الإقطاع والمتمثلة فى النظام الملكى والطقوس والمفاهيم المرتبطة به، علاوة على تمشى هذا

(١٠) ثورة ١٦٨٨ فى إنجلترا، قامت كرد فعل خائف من عودة الكاثوليكية لإنجلترا، وجاء فى «الخط الزمنى لتاريخ إنجلترا – The Timeline History of England»: عندما أصدر الملك جيمس الثانى أوامره بقراءة «إعلان التساهل – Declaration of Indulgence» [الذى يسمح للكاثوليك بممارسة الطقوس الكاثوليكية] من كل المنابر، عمّق مخاوف الناس من نواياه. وبلغت الأزمة قممتها عندما أنجبت زوجته الملكة ماري ذكرًا فى ١٠ يونيه. لاحت مخاوف ولى عهد كاثوليكي، وصاحب ذلك تعيين الملك لبعض الكاثوليك فى مراكز الدولة الحساسة بدلًا من البروتستانت. أدى ذلك إلى دعوة سبعة من قادة النبلاء وويليام أوف أورانج إلى إنجلترا [من هولندا] لتأمين انتخاب برلمان حر، وتأمين حقوقهم البروتستانتية. ركب وليم البحر، وساقته الرياح البروتستانتية ليهبط فى تورباى فى ٥ نوفمبر. تخلى الجيش عن ملكه جيمس الثانى، الذى هرب إلى فرنسا فى ١١ ديسمبر، وألقى بالخاتم العظيم [خاتم الملكة] فى نهر التايمز عند هرويه – طبعة بارنز أند نوبل ٢٠٠٣، ٢٠٠٥ – صفحة ٢٦٩، ٢٧٠. ومن يريد الاستزادة عن تلك الثورة، يمكنه مطالعة رواية ول ديورانت لها فى الجزء ٣٢ من موسوعته «قصة الحضارة» صفحات ١٧٥ – ١٩٣.

الشكل مع الأساس الاقتصادى لتلك المرحلة. واستجابة لردود الفعل القوية بعد الثورات التى اجتاحت القارة^(١١)، برزت الجمهورية الديمقراطية على أنقاض القيود المكبلة لحقوق الترشيح والانتخاب، وتم الاعتراف بحق الاقتراع العام الشامل^(١٢). وقد دعت الضرورة إلى هذا الشكل من الحكم بعد أن تفاقم الاستقطاب الاجتماعى، ولتمكين الواجهة الديمقراطية من تخفيف حدة الصراعات وتهدة خواطر وغضب الطبقات الكادحة وخاصة العمال - كما سبقت الإشارة إليه أعلاه. وقد نال هذا الشكل الأخير تأييد المدافعين عن المفاهيم الليبرالية للنظام الرأسمالى بصفته أفضل تعبير آنذاك عن تقدم الوعى والمدنية والترعة الإنسانية.

لكن الأزمات المتعددة التى واجهها النظام الرأسمالى أدت مرة أخرى إلى تخلخل الأسس الفلسفية والاقتصادية السياسية التى تقوم عليها الليبرالية، وإلى تعرضها للتفنيد سواء من منتقدى الرأسمالية أو المدافعين عنها تحت واجهات

(١١) عندما اجتاحت ثورات ١٨٤٨ القارة الأوروبية، لم يتجاوز عدد الفرنسيين الذين يحق لهم التصويت فى الانتخابات ١٧٠,٠٠٠ من الأثرياء، أى ٥ ٪ من عدد سكان فرنسا، بينما ارتفع العدد فى بريطانيا إلى ٣ ٪ من عدد السكان - ١٨٤٨ عام الثورة - Year of 1848 Revolution، مايك رابورت، بازيك بوكس ٢٠٠٨، صفحة ٣.

(١٢) لم تشهد معظم دول أوروبا النظام الديمقراطى الذى يحق لكل مواطن فيه الإدلاء بصوته فى الانتخابات إلا فى القرن العشرين، أما الولايات المتحدة، فلم تتمكن المرأة من الإدلاء بصوتها إلا فى عشرينيات القرن العشرين، ولم يتمكن السود من ذلك إلا فى الربع الأخير من ذلك القرن، وذلك قانونياً أو نظرياً، ولكن عملياً تقابلهم صعوبات حتى مطلع القرن الحالى.

متباينة. فمن الخارج، تعرضت الليبرالية لتحديات قوية متتابعة من الأيديولوجيات الاشتراكية منذ منتصف القرن الماضي. بينما تعرضت من الداخل ومن بين صفوفها، لتمرّد تيارات متعددة من اليمين الرأسمالي المتطرف الذي اتخذ أشكالاً متعددة بدأت بالفاشية والنازية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، ثم من جانب الليبرتالية «Libertarianism» منذ حوالى عقدين. وتدعو هذه الأخيرة للعودة إلى المفاهيم المبكرة للرأسمالية من حيث الحد من تدخل الحكومة لصالح جماهير الشعب، وإطلاق المبادرة الفردية لرأس المال من كل قيد، وإلغاء الملكيات العامة ووضعها تحت تصرف رأس المال الخاص فيما سمي بالتخصيص. ويعرف هذا التيار المعاصر في التطبيق باسم الريجانية في الولايات المتحدة وبالتأشيرية في أوروبا والعالم الثالث^(١٣).

الجزء الأول صفحة ٤١١ - ٤١٣.

بعد هذه المقدمة النظرية، نلقى نظرة سريعة على مجالات الليبرالية في أوجه الحياة:

(١٣) ويُطلق عليه «النيوليبرالية (الليبرالية المعاصرة) - Neo Liberalism».

١ - الليبرالية السياسية

ظهرت الليبرالية السياسية كثمرة لتطلع الإنسان الأوروبي لمستقبل أفضل مما كان يعاني منه تحت قوى الاستبداد السياسى في العصور الوسطى (القرن الخامس إلى القرن السادس عشر) حتى مطلع عصر التنوير في القرن السابع عشر.

تمثلت تلك القوى في الأمراء والملوك والأباطرة الذين حكموا بمفهوم «الحق الإلهى للملوك - Divine Right»، بالإضافة لقوة الكنيسة التى رأت في البابا - المعصوم من الخطأ، والذي من سلطته أن يحلل ويحرم، ويكافئ من يريد بالخلاص، ويحرم من يريد منه، حتى لو كانت قرى أو مدناً أو دولاً بأكملها - وكيلاً للمسيح، أو حتى تجسيداً للمسيح على الأرض، والمسيح في العقيدة المسيحية التقليدية السائدة هو الله.

انقسمت أوروبا في تلك القرون لثلاث طبقات: طبقة رجال الدين من الكنيسة - طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان - طبقة العامة، وجلهم إن لم يكن كلهم من الفلاحين وهم الأغلبية العظمى الكاسحة من الشعوب.

عاشت العامة في بؤس رق الأرض حتى القرن الثامن عشر، والتاسع عشر في بعض أنحاء أوروبا، لا يستطيعون الانتقال ولا تغيير عملهم إلا إذا وافق سادتهم.

تشارك وتنازع وتبادل السلطة المطلقة في أوروبا الأباطرة والملوك من جانب، والباباوات من جانب آخر.

ففي فرنسا على سبيل المثال، قال لويس الرابع عشر^(١٤) - الذي يطلق عليه المؤرخون الملك الشمس - أنا الدولة! وكان يؤمن بأنه ممثل الله على الأرض! وكان إسرافه وفساده متميزاً مثل استبداده. وفي الأراضي الألمانية رفض فريدريك ويليام الرابع في ١٨٤٩ التاج الإمبراطوري؛ لأنه جاءه عن طريق مجلس فرانكفورت الوطني، أى ما يشبه الشعب، أو ما يمثل الشعب، لأن من له الحق الإلهي في الحكم أكبر وأعلى من أن يأخذه من الشعب. وسبقت إنجلترا بقية أوروبا في أن البرلمان أصبح القوة السياسية القادرة على الوقوف في وجه الملك منذ مطلع القرن الثامن عشر، وإن كان ذلك لا يعنى أنه يهتم بالشعب، بل بمصالح أعضاء البرلمان وبطاناتهم.

ومن الناحية الأخرى، نجد البابا جريجورى السابع يقول: «إن قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر، وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله، إن البابا سيد الأباطرة؛ لأنه يستمد قوته من تراث سلفه القديس بطرس».

كذلك قال فيما يُسمى «الأوامر الباباوية - Dictatus Pape»: البابا وحده له سلطة عالمية - على جميع الأمراء العلمانيين أن يُقبلوا قدم البابا وحده - للبابا الحق في عزل الأباطرة - ليس لأى فرد أن يلغي قراراً بابائياً

(١٤) حكم لويس الثالث عشر من ١٦١٠ - ١٦٤٣، وابنه لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ - ١٧١٥، وابنه لويس الخامس عشر من ١٧١٥ - ١٧٧٤ أى أن ذلك الثلاثي الفاسد المستبد حكم فرنسا لمدة مائة وخمسة وستين عاماً، باسم الحق الإلهي للملوك!

في حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات الناس - لا يُسأل البابا عن تصرفاته - للبابا أن يميز لرعايا أي حاكم علماني التحلل من العهود وأيمان الولاء التي أقسموها لحاكمهم^(١٥).

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، اضطراب الإمبراطور هنري الرابع (١٠٨٤-١١٠٦) إلى السفر في شتاء أوروبا القارص من عرشه في الأراضي الألمانية إلى قلعة كانوسا في إيطاليا ليملك ثلاثة أيام في الجليلد حافي القدمين، قبل أن يأذن له البابا جريجوري السابع بالدخول عليه، لينكب على قدمي البابا تقيلاً وبكاءً حتى يعيده إلى حظيرة المسيحية التي حرمه منها.

وكلفت الحروب الصليبية - داخل الأراضي الأوروبية - ومحاكم التفتيش، ومحاكم الساحرات - تلك الممارسات الكنسية الدموية التي استمرت عدة قرون - أوروبا مئات الآلاف من القتلى، إن لم يكن أكثر. استمر ذلك الطغيان السياسي والقمع الفكري حتى جاء عصر التنوير.

عصر التنوير

طبقاً لموسوعة بريتانیکا:

التنوير هو حركة فكرية في القرنين ١٧، ١٨ بحثت في الإلهية والعقل والطبيعة والإنسان، لتخرج بصياغة

(١٥) «أوروبا العصور الوسطى» د. سعيد عاشور، من منشورات مكتبة الأنجلو، الجزء الأول صفحة ٣٣٢، ٦٦٥، ٦٦٦. ومن أقوال البابا أيضًا: الطريق الوحيد لإصلاح العالم وتخليصه من الفوضى والشرور هو إخضاعه للكنيسة، وإخضاع الكنيسة للباباوية - صفحة ٣٣٣.

رؤية جديدة للعالم، أثمرت قدرات فكرية فى مجالات
الفن والفلسفة والسياسة.

أخضع التنوير كل المرجعيات [الأفكار التقليدية] - سواء
فى العلم أو فى الدين - إلى البحث. أثمر التنوير نظريات
دنيوية حديثة فى علم النفس والأخلاق على يد رجال أمثال
جون لوك، وتوماس هوبز، وكذلك نظريات سياسية
جذرية (راديكالية). ساهم كل من جون لوك، وجيرمى
بتام، وجان چاك روسو، ومونتسكيو، وفولتير، وتوماس
جيفرسون فى تطوير نقد للدولة التسلطية، وفى رسم إطار
عام لمنظومة اجتماعية تقوم على أساس الحقوق الطبيعية.

ويجدر بنا أن نلقى نظرة خاطفة على:

أعلام الليبرالية السياسية من التنويرين

* توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩)

أثرت أحوال إنجلترا زمن ميلاد هوبز ونشأته حتى شيخوخته تأثيراً
بالغاً عليه. ولد عام الأرمادا الذى خاف الإنجليز فيه من الأسطول
الإسبانى الرهيب الذى أراد غزو إنجلترا لتحويلها إلى الكاثوليكية،
بتأييد من البابا وفرنسا الكاثوليكية، ولمنع قرصنة الشعب الإنجليزى
الذى دأبت أساطيله على سرقة ما تسرقه الأساطيل الإسبانية من أمريكا،
ولكن استطاع الأسطول الإنجليزى تدمير أقوى أساطيل أوروبا فى ذلك
الوقت، ومن بعد تلك المعركة، صارت إنجلترا قوة بحرية، ثم القوة

البحرية الأولى في العالم. ومن أقوال هوبز الشهيرة: وضعت والدتي توأمين: الخوف وأنا، وقال عن نفسه عند اشتعال الحرب الأهلية: أنا أول الفارين! وفر إلى فرنسا. أهم إنجازات هوبز الفكرية في عالم السياسة استخدامه لنظرية العقد الاجتماعي^(١٦) لتأييد الحكم الملكي المطلق. الذي اعتبره أسمى نظم الحكم وأكثرها كمالاً واستقراراً. وتأكيداً على الحكم القائم على الأساس الشعبي بدلاً من الحق الإلهي.

وأهم كتب هوبز «لثيathan - Leviathan» وهو اسم من الكتاب المقدس يعنى: «وحش هائل يقضى على بقية الوحوش»، وقصد به هوبز الحكومة القوية التي تسيطر سيطرة كاملة على كل مقاليد الحكم، وقال في كتابه: «إن أى حكومة تصل للحكم بالقوة هي حكومة شرعية يجب الخضوع لها». ومن طرائف عصر هوبز، أن الطاعون أصاب إنجلترا، واشتعل بها الحريق الكبير بعد نشر كتابه الذي ناقش فيه - من ضمن ما ناقش - الإرادة الحرة للإنسان، وأن الإنسان لم يولد فى الخطيئة، بما يخالف التفكير المسيحي التقليدى، فاتهمه رجال الدين ومن والاهم، بأن الطاعون والحريق من علامات غضب الله على ما كتبه هوبز وطالبوا بمحاكمته، وشكلوا لجنة لبحث كتابه الخطير سبب تلك الكوارث، ولم ينقذه إلا تدخل الملك شخصياً.

ومن أقوال هوبز الشهيرة عن الطبيعة البشرية: «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان».

(١٤) تلخص نظرية العقد الاجتماعي في أنها تقدم بديلاً عن الحق الإلهي للملوك في الحكم، هو رضا الشعب لعقد بينه وبين الحاكم، يقوم على القانون الطبيعي والحقوق الطبيعية، والطبيعة عند بعض التنويريين هي بمثابة الله عند المؤمنين.

يعتبر لوك أهم المفكرين السياسيين في عصر التنوير، ومُنظر الحزب البرلماني الإنجليزي وثورة (١٦٨٨)، وهو أيضًا مصدر إلهام لأفكار الثورة الأمريكية (١٧٧٦)، ولمبادئ الدستور الأمريكي، فهو الرائد الأول للتنوير والليبرالية. جاء لوك من أسرة يوريتانية^(١٧)، وقاتل أبوه في الحرب الأهلية، وهاجر إلى هولندا لمدة ست سنوات في نفى اختياري، عاد بعدها في ركاب الملكة ماري وزوجها ويليام، وعمل بالحكومة الإنجليزية حتى قرب وفاته. أهم أعماله: «رسالتان في الحكومة - Two Treatises of Government»، و «رسالة في التسامح - Treatise of Tolerance».

نادى في كتابه الأول بإسقاط فكرة الحق الإلهي لحكم الملوك، ورفع شعار العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكومين، ونادى بالحكومة المحدودة في مؤسساتها وفي صلاحياتها، وقال إن عملها الرئيس هو تحقيق الصالح العالم، بتطبيق القوانين، وحماية الأرواح وحماية الممتلكات، وجادل لوك ليثبت شرعية الملكيات الخاصة، وفند بذلك التقاليد الكنسية والملكية التي كانت ترفض ذلك المفهوم، واعتبر أن الحكم الاستبدادي نقيض الحكم المدني.

(١٧) طائفة پروتستانتية رفضت كثيرًا من ممارسات كنيسة إنجلترا، واعتبرت بعضها كاثوليكيًا، ونادت بالتطهر منها، وهم من أسباب اشتعال الحرب الأهلية في إنجلترا. هاجروا إلى أمريكا العالم الجديد، وأنشأوا بها نيو إنجلاند ليحكموا بها أنزل الله، وكانوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار.

أما عمله المهم الآخر «رسالة فى التسامح» والذي كتبه فى عامي (١٦٦١-١٦٦٢)، أو بعد ذلك، والذي اعتبره الكثير من المفكرين والمؤرخين فتحاً فى قضية التسامح الدينى فى أوروبا، فقد تكلم فيه عن التسامح بين الطوائف البروتستانتية، ورفض أن يمتد ذلك التسامح ليشمل الكاثوليك، وبالطبع لا اليهود ولا المحمديين الأتراك، أى المسلمين^(١٨).

* بارون دى مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥)

عاش فى نهاية حكم لويس الرابع عشر، الملك الشمس كما يطلق عليه معظم المؤرخين، والملك المستبد المبذر الفاسد كما يطلق عليه المدققون. كذلك عاصر نتائج انتصار الثورة الإنجليزية (١٦٨٨) التى أكدت سلطة البرلمان، وتحسر على «مجلس الطبقات - Estates General» الفرنسى الذى لم يستدعيه الملوك من ١٦١٤ حتى وفاته، وإلى قيام الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩.

دافع عن حقوق الأفراد ضد استبداد الحكومات، وبحث فى مسألة فصل السلطات، واعتبر أنها الضمان الأساسى لحرية الأفراد، وقال بأن هناك ثلاث سلطات رئيسية فى كل حكومة: السلطة التشريعية: تصدر القوانين، السلطة التنفيذية: تختص بالشئون الخارجية، السلطة القضائية: تطبق القانون.

أكد مونتسكيو على نسبية القوانين، بمعنى أنها يجب أن تتشكل وفقاً للأوضاع والظروف والبيئة فى كل مجتمع، وعاداته وتقاليده، والتى سماها مجتمعة «روح القوانين»، وذلك فى كتابه الشهير بنفس الاسم.

(١٨) ترجم هذا الكتاب عن اللاتينية الدكتور عبد الرحمن بدوى، ونشرت تلك الترجمة المتميزة مع مقدمة الدكتور بدوى المستفيضة لها، دار الغرب الإسلامى بالتعاون مع اليونسكو، وأعادت مكتبة الشروق الدولية نشره.

ورأى مونتسكيو أن الحرية السياسية هي حرية التصرف فى حدود القوانين فى ظل حكومة تعمل وفقاً للقوانين وليس الأهواء، وقال إن القانون المدنى هو ذلك القانون الذى يضعه المجتمع ليحكم العلاقة بين أفرادہ.

دافع مونتسكيو عن الرق وعن استرقاق العبيد من أفريقيا، بل وأصبع عليه شرعية مسيحية؛ حيث يقول فى كتابه «روح القوانين» بكل صراحة: شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين، لم تبدأ من استعباد شعوب أفريقيا لکی تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة .. والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة أنوفها فطساء فطساء شنيعاً، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله قد وضع روحاً داخل جسم حالك السواد... من المستحيل أن نفترض أن هؤلاء الناس بشر... لأننا إذا افترضنا أنهم بشر فإننا سنبدأ فى الاعتقاد بأننا لسنا مسيحيين^(١٩).

* جان چاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)

ربما كان روسو من أهم المفكرين السياسيين على الإطلاق، وهو رجل المتناقضات فى حياته وفى آرائه وكتاباتہ، وفى تفسير المؤرخين لأعماله وآرائهم فيه.

فمفكر الثورة الفرنسية - الذى مات قبل اندلاعها بعقد واحد (١٧٨٧ - ١٧٨٩) اعتبره البعض مدافعاً عن الفردية، والبعض الآخر

(١٩) الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده - د. حورية مجاهد، الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٩٢ صفحة ٤٣٦.

مدافعًا عن الجماعة على حساب الفردية، وهو المدافع الحقيقي عن الديمقراطية، وعند البعض بل هو المدافع عن الشمولية ... هل هو ثوري أم محافظ ... مادي أم رוחي؟ ... وهكذا.

كابد روسو ابتلاءات الحياة، فقد هاجر جده البروتستانتى (الهوجونوت) من باريس إلى جنيف هربًا من اضطهاد الكاثوليك والحروب الدينية التى أصابت فرنسا (١٥٦٢ - ١٦٢٩). ماتت أمه بعد ولادته مباشرة، ثم تركه أبوه وترك جنيف كلها، فتولى خاله تربيته. تنقل فى صغره بين كفلاء وأرباب عمل مختلفين، حتى دخل ديرًا فى إيطاليا، وتحول من البروتستانتية إلى الكاثوليكية، ولكن هرب بعد ذلك من الدير بسبب فساد رهبانه، وعاد فيما بعد إلى البروتستانتية.

التحق بالعمل لدى سيدة فى نهاية عقده الثانى، ووجد عندها فرصة القراءة والتعلم، ثم عاد لفرنسا ليعمل فى ليون ثم باريس، وسنحت له فرصة الوصول لرجال الأدب والفلسفة. تزوج وأنجب أطفالًا، ألقى بهم جميعًا فى ملجأ لقطاء لضيق ذات اليد، أو لرغبته فى التحرر وعدم التزامه مسئولية أبنائه فى قول آخر، خاصة بسبب علاقاته الغرامية المتعددة والشاذة.

عندما قتل زلزال لشبونة فى عام ١٧٢٥ كثيرًا من المصلين فى الكنيسة وآلافًا خارجها، ألقى باللوم على حياة البرتغاليين الفاسدة التى جلبت عليهم الزلزال.

بدأ نجمه يبرز عندما قدم بحثًا فريدًا للإجابة عن مسابقة فلسفية محورها: هل أفست العلوم والفنون الأخلاق أم أصلحتها؟.

كفلت له الجائزة إجابته الصارخة: إنها علة فساد الأخلاق، وإن ما يراه الناس تقدمًا وحضارة ما هو إلا تخلف أخلاقي ومعنوي.

ومن يومها، بدأت كتابات روسو تدعو للعودة للحالة الطبيعية الأولى للبشرية، التي سادت فيها الفضيلة التي أفسدتها الحضارة.

وكتب روسو عن إله الطبيعة بما يخالف أقوال الكنيسة الكاثوليكية، خاصة قوله إن البشر ولدوا أحيانًا طيبين وليس في الخطيئة الأصلية، الأمر الذي وجدته الكنيسة ينفي معنى وهدف صلب المسيح، فأدانته كبير أساقفة باريس، وأصدر أمرًا بالقبض عليه.

وعلى عكس جون لوك، رأى روسو في الملكية الخاصة السبب الرئيسي لكل أمراض المجتمع.

ثم بدأ روسو - الذي يراه الكثيرون من أعلام عصر التنوير - يهاجم كثيرًا مما اعتبره الفلاسفة تنويرًا، وكثيرًا ما دخل في صراعات مع قولتير. أخذ روسو في نقد الأحوال القائمة نقدًا جذريًا، ورأى أن الأوضاع في عصره تقنن الظلم والتفاوت في أحوال الناس المادية وتقضي على المساواة، وانتقد اتفاق السلطة الدينية مع السلطة السياسية على الحق الإلهي للملوك في الحكم.

شرع روسو في صياغة أهم أعماله: «العقد الاجتماعي» وتساءل فيه: ولد الإنسان حرًا، ولكنه الآن مكبل بالأغلال في كل مكان، فكيف حدث هذا؟ وكيف أصبح مشروعا؟. طرح روسو آراءه في الحرية والمساواة والسيادة الشعبية - وجعلت الثورة الفرنسية شعارها: الحرية - الإخاء -

المساواة^(٢٠) - ورأى حاجة المجتمع إلى عقد اجتماعى يتنازل بموجبه الأفراد عن إرادتهم الخاصة لحساب إرادة جماعية، تُسمى جمهورية أو دولة، وعلى الأفراد «المواطنين» الخضوع لقوانين الدولة.

ورأى أن الديمقراطية تناسب الدول الصغيرة، والأرستقراطية تناسب المتوسطة، بينما الملكية تناسب الكبيرة.

هاجم العبودية بشدة، فكان صوته نَشازًا فى عصره، عصر التنوير.

وأباح ثورة الشعب عند سلب حريته، ومع ثورته الواضحة، فقد قال إن الحكومة الديمقراطية تناسب شعبًا من الآلهة، والحكومة الكاملة لا تناسب آدميين، كذلك قال - كما لو كان يريد إيقاع قارئه فى مزيد من الحيرة وإيقاع نفسه فى مزيد من التناقض -: إذا جعل الشعب لنفسه ممثلين، فقد حرّيته وفقد وجوده.

قضى روسو سنواته الأخيرة هاربًا فارًا، وسيطر عليه شعور بالاضطهاد، ربما مصاحبًا لشعور بجنون العظمة، واستقر فى النهاية فى إنجلترا، وتملكه شك فى أن الكنيسة الكاثوليكية وفلاسفة التنوير، وحتى جميع أصدقائه القدامى يتآمرون ضده. ذلك العبقرى الذى أحب الطبيعة، وأحب عامة الناس - الذين كثيرًا ما رجموه بالحجارة - أمضى بقية أيامه فى التأمل فى نزعات طبيعية، رأى أنها تقربه من الله، وذلك الماجن جنسيًا، رق قلبه وسمت عواطفه، واقترب من الله كما لو كان قطبًا صوفيًا، أو قديسًا، فقال وهو على فراش الموت: دعوا النافذة

(٢٠) ولكن هذا الشعار لم يمنعها من إخراج الجيوش الفرنسية لغزو الكثير من الدول الأوروبية والأفريقية والآسيوية.

مفتوحة... انظروا كيف صفت السماء كما لو كانت بوابتها مفتوحة
لى؟ وكأن الله يتظرنى!

* جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٢)

من أهم مفكرى القرن التاسع عشر، وأهم المفكرين الإنجليز فى
ذلك القرن بلا منازع، وأحد أعلام الليبرالية الغربية.

هو أكبر أبناء جيمس ميل، أحد موظفى شركة الهند الشرقية، تلك الشركة
التي غيرت تاريخ العالم عندما بدأت بالتجارة مع الهند، ثم تتطورت أعمالها
فى القارة الهندية حتى سيطرت على كل مقدراتها السياسية والاقتصادية
والمالية، وتحولت إلى قوة احتلال ذات جيش هائل من المرتزقة،
واستطاعت القضاء التام على صناعة المنسوجات الهندية، فتحولت الهند
إلى أكبر مستورد للمنسوجات البريطانية بعد أن كانت ورشة العالم لصناعة
المنسوجات، وضربت الشركة رسوماً على كل واردات وصادرات الهند^(٢١).
عمل جون الابن فى نفس الشركة التى عمل بها أبوه، وتدرج فى مناصبها حتى
أصبح ثانى شخصية بها. وكما تبع جون أباه فى العمل فى شركة الهند الشرقية،
فقد تبعه فى اقتناعه بمذهب النفعية الذى فصل جيمس بتام ملامحه.

لكنه بعد ذلك تخلى عن ذلك المذهب ووضع تعريفاً فلسفياً
للسعادة، نافياً أن تكون بمثابة ثمرة مادية يمكن قطفها، بل هى حالة
يمكن الوصول إليها بممارسة الأعمال الأخلاقية الصائبة.

(٢١) من يريد الاستزادة، يمكنه قراءة كتاب «الشركة التى غيرت العالم: كيف بنت شركة الهند
الشرقية الإمبراطورية البريطانية» لك روبيتز، من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

وضع چون ستيوارت ميل عدة كتب يدافع بها عن مصالح عامة الشعب بعد أن بدأت آثار الليبرالية الاقتصادية فى إلحاق أبلغ الأذى والضرر بها، خاصة بعد الثورة الصناعية واستغلال رأس المال الطائش والطائح لأبسط الحقوق الإنسانية، وأهم هذه الكتب «عن الحرية - On Liberty»، وكتب كذلك «عن الحكومة التمثيلية - On Representative Government».

ورأى أن واجب الحكومة العمل على تحقيق السعادة لأكبر عدد من الشعب، وأن تلك السعادة ليست محصورة فى الماديات، ولكنها فى ممارسة الفضائل، ورأى أن تلك السعادة هى الأسمى والأجدر بالإنسان.

أهم إنجازاته الفكرية، وهى الخاصة بالحرية، ظهرت كرد فعل على ما رآه فى إنجلترا القرن التاسع عشر من بؤس وفقر، وقهر فكرى لعامة الشعب، وخاصة للنساء، ونادى بضرورة كفالة الحريات الثلاثة: حرية العقيدة وإبداء رأى: وذلك فى المسائل الدينية بصفة رئيسية، والمسائل السياسية والاقتصادية.

حرية العمل: طالب بالتححرر من الاحتكارات والامتيازات التى تكفلها الحكومة أو الملكية لقلّة من الأفراد، بينما تترجح غالبية الشعب فى خدمة سادتهم.

حرية التجمع: لتكوين نقابات أو اتحادات عمال، أو جماعات سياسية. ولكن رائد الحرية خاف من السماح للأغلبية الجاهلة أن تختار البرلمان!

٢- الليبرالية الاقتصادية

مرت الليبرالية الاقتصادية بثلاث مراحل رئيسية: الليبرالية التقليدية أو الكلاسيكية، ثم الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»، ثم أخيرًا «النوليبرالية» (الليبرالية المعاصرة) - «Neo Liberalism»، والأخيرة ظهرت أفكارها المبدئية في منتصف القرن الماضي وتطورت حتى بدأ ريجان تطبيقها في الولايات المتحدة، وتآثر في بريطانيا، ورفعت السوق إلى مقام مقدس حتى قيل للسوق «يا إلهي ما أعظم قدسيك!».

ونبدأ في تصفح تطور تلك الليبرالية من بداية عصر التنوير، حتى عصر العولمة في كلمات قليلة.

عاشت معظم أوروبا تحت نظام الإقطاع في اقتصاد مغلق لعدة قرون، فانتظم المجتمع تحت مظلة الإقطاع في ثلاث طبقات رئيسية كما عرفنا سابقًا (رجال الكنيسة - الأمراء والفرسان - العامة وهم الغالبية الكاسحة، جلهم - إن لم يكن كلهم - فلاحون، يعيشون فيما يشبه الاكتفاء الذاتي من الضروريات في الإقطاعيات والعزب).

لم يكن لدى معظم الناس في تلك المجتمعات المغلقة في العصور الوسطى من طموحات أو حتى تطلعات كبرى، كانت أفكار الكنيسة عن المتع الدنيوية سلبية، حتى إنها كانت ترى الجنس بين الزوجين أمرًا غير مرغوب فيه، وكذلك شككت في أرباح التجارة هل هي حلال أم حرام؟ واستندت

لآية في الإنجيل يقول فيها المسيح: إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب إبرة من أن يدخل الغنى ملكوت الله. وكان من الفضائل إنكار كل المتع الدنيوية الحلال، وكبت كل تطلعات الفرد الدنيوية، وأرادت الكنيسة رعية لا تفكر ولكن تطيع، وهل يريد ملوك الحق الإلهي في الحكم شعوباً أفضل من ذلك؟. حتى جاء عصر إعادة الميلاد، وللأسف هذا المصطلح الإيطالي تمت ترجمته بطريقة خاطئة تماماً - مثل غيره من المصطلحات - إلى عصر النهضة^(٢٢). بدأ عصر إعادة الميلاد في إيطاليا في القرن ١٢ أو ١٣، ومنها انتقل لبقية أوروبا حتى القرن ١٥ أو ١٦. ومحور ذلك العصر هو الإنسان. ذلك الإنسان الذي سحقت الكنيسة وأنظمة الحكم، أصبح مع عصر إعادة الميلاد أهم ما في الوجود... والاهتمام به بإعادة إنسانيته، والاعتراف بقدراته وملكاته على الإبداع، وبحقه في التمتع بالدنيا... في كل شئون حياته.

صاحب ذلك أن بدأت التجارة تزدهر بين أوروبا وبقية العالم - نتيجة أسباب كثيرة متنوعة، منها ما رآه الصليبيون من تقدم الحياة في الشرق الأوسط، مع التقدم النسبي في وسائل النقل والانتقال، حين ظهرت طرق شبه ممهدة، مع استخدام أفضل لحيوانات النقل باستخدام السروج والركابات، والعربات المجرورة البدائية، مع التقدم النسبي في صناعة السفن بأجهزتها الملاحية وتزويد الملاحين بخرائط أدق - فزادت تطلعات الناس لحياة أفضل في كل أوجه المعيشة، من منازل لأطعمة لملابس، لبعض المشغولات اليدوية ولبعض الكماليات النسبية، وبدأت التجارة تجتذب أعداداً أكبر، كذلك بدأت الحرف في التوسع وفي اجتذاب أعداد أكبر للعمل بها.

(٢٢) الكلمة الإيطالية هي: «Rinascimento»، وبالفرنسية هي «Renaissance»، وتعني في اللغتين إعادة الميلاد، وعنّت في الواقع الرجوع للثقافتين والحضارتين الإغريقية والرومانية.

ومع ذلك التطور النسبي، بدأت البلدات والمدن تجتذب سكانًا أكبر من الإقطاعيات والعزب والقرى. ولكن عاكس ذلك التطور رق الأرض، فالغالبية العظمى من الناس يعملون لحساب ساداتهم من الإقطاعيين في الزراعة، والقليل في الحرف اليدوية، وليس لديهم الحرية في الانتقال لأي عمل آخر في أي مكان آخر.

ومع زيادة التجارة مع الشرق، بدأت إسبانيا والبرتغال في البحث عن طريق يصل للشرق الأقصى - للحصول على كنوزه من التوابل وغيرها التي عاينها الصليبيون في الشرق الأوسط، بدون المرور على الشرق الأوسط حتى توفر الضرائب التي كانت تدفعها لتجاره وحكوماته، وبدأ عصر الاستكشاف البحري غربًا، والذي أهدى أمريكا للمغامرين، بما حوته من مناجم فضة وذهب، وأراضٍ زاخرة بكل ثروات الطبيعة المعدنية والزراعية والحيوانية، فتدفقت سبائك الفضة والذهب إلى إسبانيا، فانتعشت خزائنها، وأنعشت معها جيرانها، وبدأ القراصنة الإنجليز في سرقة الكنوز التي سرقها السفن الإسبانية من أمريكا.

أنشأت هولندا شركة الهند الشرقية، وتلتها إنجلترا لتستحوذ على الهند وتمد يدها الطويلة لبقية شرق آسيا، وكذلك فعلت فرنسا.

في هذا السياق التاريخي ظهر رائد الليبرالية الاقتصادية الإسكوتلاندي: آدم سميث (٢٣).

(٢٣) آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠): فيلسوف كتب في الأخلاق والاقتصاد السياسي. درس في جامعة جلاسجو ثم أكسفورد، وصادق دافيد هيوم والفيلسوف والمؤرخ الإسكوتلاندي.

كتب «نظرية في العواطف الأخلاقية - Theory of Moral Sentiments»، =

أ- الليبرالية التقليدية أو الكلاسيكية

أول الليبراليات الاقتصادية ظهورًا.

نادت بعدم تدخل الحكومة في الزراعة والتجارة والحرف، أى الاقتصاد بصفة عامة، وتحرير الناس من رق الأرض، ومن احتكارات الأعمال التجارية والحرفية التى ميزت بها الحكومة بعض الأفراد والشركات.

بدأ آدم سميث بالمناداة بها، وأيده بعد ذلك وطور فكرته دافيد ريكاردو، وجون ستوارت ميل. ظهرت فكرتها مع كتاب سميث فى (١٧٧٦)، وظهرت آثار تطبيقها الرهيب على المجتمع الإنجليزى بعد حوالى نصف قرن من اتباعها، خاصة أنها صاحبت الثورة الصناعية، والإنتاج بالجملة، فتسلط رأس المال وطغى واستبد، وبدأت التمردات والانتفاضات والثورات تشتعل فى أوروبا والولايات المتحدة، فانزعج البعض لأحوال البؤس والشقاء والفقر التى عاشت فيها الشعوب الصناعية، وفى مقدمتها إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة؛ مما أدى إلى ظهور مفكرين ليبراليين مصلحين،

= ثم سافر إلى فرنسا بصحبة أحد طلابه - الذى أصبح دوقًا فيما بعد - والتقى المفكرين الفرنسيين فى عصره، ودرس بضع سنوات حتى استطاع أن يقدم أهم كتبه «البحث فى طبيعة وأسباب ثروات الأمم» - Inquiry into The Nature and Causes of The Wealth of Nations (١٧٧٦) - ونادى فيه بحرية الناس فى العمل، وأنهم يحققون مصالح المجتمع ككل عندما يتركون أحرارًا فى السعى وراء مصالحهم، وحاجج بأن هناك «يد خفية» - **Invisible hand** - تصحح مسارات الانحراف والإخفاق فى السوق، وذلك أفضل من سيطرة الملك والبرلمان الإنجليزى على كل الأمور التجارية والاقتصادية، واحتكارهم إعطاء الامتيازات فى التجارة والصناعات الحرفية لمن يريدون. دعم فى كتابه المبدأ الذى نادى به «الفيزيوقراط» - Physiocrats - الفرنسيون: «دعه يعمل - Laissez Faire». أصبح كتابه بمثابة «الكتاب المقدس» - Bible - للرأسمالية على حد قول موسوعة بريتانىكا.

ينادون بتدخل الحكومة لإنقاذ الجماهير، وذلك بفرض ضرائب على الأثرياء والشركات الكبيرة، ومساعدة الشعب في سد احتياجاته الضرورية في السكن والطعام والعلاج والتعليم، وإعانات البطالة والمرض والتقدم في العمر.

ب- الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»

ظهرت كرد فعل لما آلت إليه أحوال الشعوب في بلاد الرأسمالية الصناعية الحديثة: إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، حيث كشر رأس المال عن أنيابه ومخالبه، وفرض شروطه القاسية على العمالة الفقيرة الضعيفة؛ مما سبب الكثير من الانتفاضات والتمردات والثورات^(٢٤).

أحسن بعض الليبراليين بأنه لا بد من معالجة الأحوال وتصحيح المسار

(٢٤) على سبيل المثال، نشبت في فرنسا ثورتان في ١٨٣٠، ١٨٤٨ مع كثير من الاضطرابات والانتفاضات، ومنها انتفاضتان مسلحتان في ١٨٣٨، ١٨٧١، وعمت ثورة ١٨٤٨ الكثير من دول أوروبا: فرنسا، النمسا، ألمانيا، إيطاليا وغيرها. وقد استطاعت أنظمة الحكم استعادة سيطرتها في كل دول الثورة بعد مرور حوالي عشرة أشهر أو أقل من اشتعالها. وفي بريطانيا دمر العمال العاطلون «اللوديون» مكينات النسيج الحديثة التي اعتبروها سبب بطلانهم في ١٨١٢، ثم ١٨١٦، وفي ١٨١٩ نشبت مواجهة يتبرلو الدامية في مانشستر، وكشف إحصاء يوم القيامة الجديد «New Domesday» في ١٨٣٧ أن سبعة آلاف إنجليزي يملكون ٨٠٪ من الأراضي، وأضرب عمال الميناء في لندن لمدة شهر في ١٨٨٩. وفي الولايات المتحدة، سجّل المؤرخ هوارد زن في كتابه «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» حالة القمع والفقر والبؤس التي عاشها الشعب، وسجلت الفصول: «الحرب الأهلية الأخرى - لصوص وثوار - الإمبراطورية والشعب - التحدي الاشتراكي» الفترة القاسية من ١٨٣٩ - ١٩١٤. ونكتفي هنا بما قاله إجناتيو دوتلي في المؤتمر الوطني لحزب الشعب في سان لويز ١٨٩٢: نلتقى اليوم وأمتاع على حافة انهيار أخلاقي وسياسي ومادي، فالفساد يبيمن على صناديق الاقتراع، والصحف إما مدعومة من الحكومة وإما مكتمة، والرأي العام مقموع.. والعمل كاسد، وبيوتنا تكبلها الديون، والأرض في أيدي الرأسماليين... الأغنياء يسرقون في صفاقة عرق الملايين يومًا بعد يوم.. إن ثمة طبقتين تخرجان من رحم الظلم الحكومي: الفقراء والمليونيرات - التاريخ الشعبي للولايات المتحدة، هوارد زن، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ج١، صفحة ٤٥١.

ثلاً تحدث انتكاسة إلى النظام الاقتصادي القديم، أو إلى المسار الشيوعي. بدأ المفكرون الليبراليون ينادون بتدخل محدود للدولة في المسار الاقتصادي، وتدخل الدولة لتساعد على سد الضروريات الأساسية للفقراء: الطعام والسكن والملبس، والعلاج والتعليم.

توج ذلك الاتجاه فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة بعد أزمة ١٩٢٩ التي طحنت بلاده وأصاب أوروباً، فتقدم بمشروعه الذي سماه «الصفقة الجديدة - New Deal».

أيقن روزفلت أن ترك الحياة المالية والاقتصادية لقوى السوق دمرهما، ودمر معها الحياة الإنسانية الكريمة، فوضع شعاراً إنسانياً جديداً هو العمل للتححر من الحاجة، فذل الحاجة يقضى على كرامة الإنسان وحرية، ومن ثم إنسانيته، وإذا لم تحافظ الحكومة على إنسانية مواطنيها فماذا بقى لها أن تعمله؟! (٢٥)

طبق روزفلت أفكار عالم الاقتصاد الإنجليزي جون ماينارد كينز للوصول إلى أعلى حدود لتشغيل الطاقة العاملة، ووضع برنامجاً واسعاً أسس به «دولة الرفاهة - Welfare State»، فوضع نظاماً جديداً للضرائب المتصاعدة

(٢٥) وربما وضع روزفلت نصب عينيه وفي قلب ضميره المقالة الخالدة لما رى إلين ليس: وال سترت تملك البلاد، لم تعد الحكومة حكومة الشعب لكنها حكومة وال سترت.. وقوانين البلاد هي نتاج نظام يُجبل الأوغاد على حساب الشرفاء. كل عام يموت عشرة آلاف طفل جوعاً، وتجبر أكثر من مائة ألف فتاة على بيع شرفها مقابل الطعام.. هناك ثلاثون رجلاً تربو ثروة الواحد منهم على المليار ونصف المليار من الدولارات، وأكثر من نصف مليون شخص يبحثون عن عمل.. لقد فاض بالناس الكيل، ألا فيحذر كلاب المال الذين لا يزالون يطاردوننا - المصدر السابق، صفحة ٤٥٠.

على الأثرياء وأصحاب الدخول العالية، ووضع قيودًا على أعمال البورصة لمنع جشع وطمع رأس المال وتلاعب المضاربين بأموال الشعب^(٢٦)، وأنشأ وكالات حكومية جديدة لاستعادة حيوية الاقتصاد، وبناء الطبقة الوسطى، منها وكالة لخفض البطالة، ووكالة ثانية لتنشيط الإنتاج الصناعى، وثالثة لضبط ومراقبة أسواق المال، ورابعة لدعم الإنتاج الزراعى، وأخرى لتوليد الكهرباء والتحكم فى الفيضانات، ثم أنشأ فى المرحلة الثانية من «الصفقة الجديدة» وكالتين لرعاية العمال، وأسس نظام الضمان الاجتماعى.

مثلت فترة تشريع الصفقة الجديدة فى مرحلتها (١٩٣٣ - ١٩٣٥)،
(١٩٣٥ - ١٩٣٦) أساس تحول الولايات المتحدة من دولة:

«موسومة باللامساواة الاقتصادية الجسيمة، ومخطمة من
الحزبية السياسية المريعة»، ومن فترة «اللامساواة التى ليس
لها نظير فى أى مكان آخر فى العالم المتقدم» إلى فترة «الانضغاط
الكبير» [يقصد الفترة التى تلت برنامج الصفقة الجديدة] حين
تم «تضييق فجوات الدخل»، وكانت تلك الفترة بمثابة «بيان

(٢٦) بعد أن أزال «النيوليبرالية» (الليبرالية المعاصرة) - Neo Liberalism آخر تلك القيود انهارت بورصة وال ستريت منذ سنوات قليلة، وقال جرينسبان رئيس الاحتياطى الفيدرالى السابق: «إنى أرى الصرح الذى بناه ينهار. جاء فى التقرير الذى أعدته لجنة خاصة - طبقاً لقانون كشف الخداع والاستعادة [الاقتصادية والمالية]، الذى مرره الكونجرس واعتمده الرئيس - عن الأزمة المالية فى أمريكا أن المؤسسات المالية أنفقت ٢,٧ بليون دولار لتعظيم مصالحها فى الأعوام من ١٩٩٩ - ٢٠٠٨، ويعلق مصدر التقرير على ذلك: لا تُدهش اللجنة قوة تأثير مؤسسات التمويل على الإدارة والكونجرس! صدر التقرير تحت اسم: The Financial Crisis Inquiry Report بتاريخ يناير ٢٠١١ عن دار نشر PUBLICAFFAIRS فى نيويورك.

عملى يبين أن الإصلاح السياسى يستطيع أن يخلق توزيعاً
للدخل أكثر عدلاً، ويستطيع فى سياق عملية الإصلاح أن يخلق
مناخاً أصح للديمقراطية ... الانضغاط الكبير تبعه فى الحقيقة
أعظم انتعاش اقتصادى مستمر فى تاريخ الولايات المتحدة.
وزيادة على ذلك فإن إدارة روزفلت أبانت عملياً أن إحدى
الحجج النموذجية التى تساق ضد التدخل فى الاقتصاد على
نطاق واسع لم تكن صحيحة، وهى القول بأن التدخل على نطاق
واسع سيقود لا محالة إلى فساد مساوٍ على نطاق واسع^(٢٧).

أوروبا والليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»

ربما سبقت معظم بلاد أوروبا الغربية الولايات المتحدة فى تطبيق
الليبرالية الحديثة التى تقوم فيها الحكومة بدور فعال لصالح الشعب
وحمايته من طغيان رأس المال.

وربما كانت ألمانيا بيسمارك (المستشار الحديدى) فى نهاية القرن التاسع
عشر من أوائل الحكومات الأوروبية الحديثة التى خططت لنزع فتائل
غضب وتمرد الشعب، فأسس برنامجاً إصلاحياً شاملاً^(٢٨)، فى نفس
الوقت الذى قاد فيه «الصراع الثقافى - Culture - kulturkampf»

(٢٧) هذه الفقرات من كتاب ضمير ليبرالى، پول كروجمان الاقتصادى الشهير، من
منشورات العبيكان للنشر، طبعة ٢٠٠٩، صفحات: ١٠، ١٥، ٤٤، ٤٥، ٧٠.

(٢٨) قال پول كروجمان: أدخل أوتو فون بيسمارك رواتب تقاعد الشيخوخة وتأمين البطالة،
بل أدخل التأمين الصحى الوطنى فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وقد تصرف من
حساب سياسى لا من [دواعى] الرحمة، لقد أراد أن يحول دون المعارضة المحتملة لحكم
القيصر، ولكنه بفعله ذلك أظهر أن وجود حكومة أكثر رحمة كان فى الحقيقة أمراً ممكنًا -
ضمير ليبرالى، صفحة ٢٧.

«Struggle» وهو صراع ثقافى مرير لإخضاع الكنيسة الكاثوليكية لسلطة الدولة الناشئة، وحتى يضمن ولاء الكاثوليك للدولة.

كانت لفرنسا بعض الميول الاشتراكية منذ فرانسيس بابيف (١٧٤٦ - ١٧٩٧) الذى شارك فى الثورة الفرنسية فكرياً وعسكرياً - ودعا لنظام اشتراكي يقوم على أساس المساواة المطلقة، والملكية العامة للأراضى، وتوزيع الناتج القومى بين المواطنين. كذلك دعا الاشتراكي الأشهر فى ذلك العصر، سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٥٠) - والذى شارك أيضاً فى الثورة الفرنسية، وقلبها فى الثورة الأمريكية على الإنجليز، فكرياً وعسكرياً - وإن لم تكن أفكاره جذرية بدرجة بابيف، وربما عاشت أطول لهذا السبب - دعا إلى الاهتمام بتقدم المعرفة خاصة العلمية، والعمل خاصة الصناعى، وإلى صياغة دستور جديد ومجتمع جديد يتخذ العلماء ورجال الصناعة فيه صدر الدولة بدلاً من الأمراء ورجال الكنيسة .

واحتلت بريطانيا مكاناً وسطاً بين ألمانيا من جانب، والولايات المتحدة - التى اشتهرت فى معظم تاريخها، سوى فترة الصفقة الجديدة من ١٩٣٢ إلى السبعينيات من القرن الماضى، بأن بها أعلى لامساواة فى العالم الصناعى - فقدم روبرت أوين أفكاراً اشتراكية - ونادى بالتخطيط على أسس أخلاقية، وإلى أن تشارك كل الطبقات فى شئون الدولة وخيراتها.

ت- النيوليبرالية، أو الليبرالية المعاصرة (Neo Liberalism)

طبق الرئيس فرانكلين روزفلت برنامجه «الصفقة الجديدة» على الرغم من المعارضة الشرسة للمحافظين وأصحاب رؤوس الأموال، وسار نائبه هارى ترومان - بعد أن خلفه رئيساً - على نفس الطريق.

ثم جاء أيزنهاور، رئيس من الحزب الجمهوري، ولم يكن من صقوره، وكانت الأغلبية المحافظة في الحزب الجمهوري قد تأقلمت - على مضض - على دولة الرفاه ومؤسساتها وأعرافها، واستمر الحال كذلك حتى أواخر السبعينيات من القرن الماضي، حين تولى بول فولكر رئاسة مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي في نهاية حكم كارتر، وبدأ به المد الجديد لحكم رأس المال، وتخلّى الحكومة عن مسئولياتها الاجتماعية تجاه الشعب، والعمل بشعار «صدمة فولكر»، ثم حملة الشعارات التي أطلقها كل من ريجان بعد توليه الرئاسة (١٩٨٠ - ١٩٨٨)، وتاتشر في بريطانيا بعد توليها رئاسة الوزراء (١٩٧٩ - ١٩٩٠): الحكومة الصغيرة هي أفضل حكومة - تدخل الحكومة هو المشكلة وليس الحل - السوق الحر والاقتصاد الحر هو الوسيلة الوحيدة للتقدم وحرية المواطنين، وأضافت تاتشر شعارها «ليس هناك بديل - There is no alternative» والذي تم اختصاره (TINA)، فقالت بحتمية المشروع الاقتصادي الحر في المسار الإنساني. حطم كل منهما بقايا الاتحادات النقابية والعمالية، فلم يعتبر أن الناس أحرار في إنشاء الاتحادات والنقابات، وحطما بذلك قدرة الموظفين والعمال على المطالبة بتحسين أحوالهم، بل وحتى على المطالبة بحقوقهم، وسخر ريجان من كل برامج المساعدة الحكومية حتى إنه اخترع قصص منفرة عمن ساهم الانتهازيون الذين يثرون من الإعانات الحكومية للفقراء والعاطلين، بينما قالت تاتشر: لا يوجد شيء اسمه المجتمع.

ولكن كيف استطاع ريجان وتاتشر تحقيق ذلك؟

لقد عمل الاثنان في ضوء نظرية جديدة لخصها دافيد هارفى في كتابه «A Brief History of Neo liberalism» الذى أصدرته جامعة أكسفورد فى ٢٠٠٥، وترجمته العيكان فى ٢٠٠٨:

الليبرالية الجديدة فى المقام الأول نظرية فى الممارسات السياسية والاقتصادية، تقول بأن الطريقة المثلى لتحسين الوضع الإنسانى تكمن فى إطلاق الحريات والمهارات التجارية الإبداعية للفرد، ضمن إطار مؤسساتى عام يتصف بحمايته الشديدة لحقوق الملكية الخاصة، وحرية التجارة، وحرية الأسواق الاقتصادية. ويقتصر دور الدولة فى هذه النظرية على إيجاد وصون ذلك الإطار المؤسساتى الملائم لتلك الممارسات. يتحتم على الدولة - مثلاً - ضمان قيمة وسلامة الموارد المالية، وعليها إقامة الهيكليات والوظائف العسكرية والدفاعية والأمنية والقضائية المطلوبة لحماية حقوق الملكية الفردية، واستخدام القوة إن اقتضت الحاجة لضمان عمل الأسواق بالصورة الملائمة... تعتبر الليبرالية الجديدة علاقات السوق قيمة أخلاقية بحد ذاتها، قادرة على أن تكون دليلاً للفعل الإنسانى وبدلاً من كل المعتقدات الأخلاقية... فتسعى إلى إدراج كافة الأفعال الإنسانية ضمن حيز السوق.

أى أن وظيفة الدولة الأولى هى حماية رأس المال وإطلاق حريته فى الأسواق، مع استخدام القوة إذا لزم الأمر لتحقيق ذلك، وقيم الأسواق هى البديل عن كل القيم الأخلاقية السابقة؟!.

«ولكن» الثانية هنا:

ولكن كيف أمكن لمثل هذه النظرية الرأسمالية المتطرفة أن تسود الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة، ومن سار بحذاها مثل بريطانيا، ومن تبعها من حكومات في أمريكا الجنوبية والشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا؟.

تبدأ الملحمة من أربعينيات القرن الماضي، حين اجتمع في منتجع مونت بيليران أربعة من الفلاسفة من أوروبا (ثلاثة من النمسا) وأمريكا: فريدريك فون هايك، ولودفيج فون ميسز، وكارل بوبر، وميلتون فريدمان..

تم في ذلك الاجتماع التفكير في المستقبل تحت وطأة عدة كوابيس: هيتلر وموسوليني، والحرب العالمية الثانية، وستالين وفظائع الشيوعية، وامتدادها من الاتحاد السوفيتي إلى أوروبا الشرقية أو الشيوعية.

شغل بال الفلاسفة الأربعة أمرًا اعتبروه أهم ما في الإنسانية: الحرية، ولذلك اعتبروا أنفسهم ليبراليين بالمفهوم الأوروبي التقليدي، أي أنهم ليبراليون جدد^(٢٩)، حتى يفصلوا أنفسهم عن الليبرالية الحديثة التي

(٢٩) هل اختطفوا عن عمد مصطلح الليبرالية الساحر الجذاب من البداية؟ أم أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يتحالفوا مع المحافظين واليمين المسيحي في الولايات المتحدة في مواجهة القوى الليبرالية (ولو حتى على الطريقة الأمريكية) بها؟ مع الأخذ في الاعتبار أن مصطلح ليبرالي جذاب في أوروبا وليس في أمريكا، وطبقًا لاستطلاع رأى بيو في يونيو ٢٠١٠، أفاد ٤٠٪ من الأمريكيين أنهم يُعرفون أنفسهم على أنهم محافظون، و٣٦٪ على أنهم معتدلون، و٢٢٪ فقط على أنهم ليبراليون.

سادت - منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحتى بداية الربع الأخير من القرن العشرين - في أوروبا والولايات المتحدة، ونادت بتدخل الدولة في الاقتصاد والتمويل، وبإقامة دولة الرفاهية.

رأى هؤلاء الفلاسفة أن تدخل الدولة لا بد وأنه سيكون منحازًا لجماعات الضغط والمصالح الخاصة، وأنه ليس للدولة، أى دولة، القدرة على الإلمام بكل تفاصيل الحياة الاقتصادية والمالية، فكيف تستطيع التخطيط الشامل لها؟.

ناسبت تلك الأفكار تطلعات المؤسسات الكبرى وأصحاب الأموال في الولايات المتحدة؛ حيث كانت البيئة الراسخة الكارهة - إن لم تكن المعادية - لتدخل الحكومة وخاصة من «الواسپ - White Anglo-saxon Protestant»، وبدأت تلك الأموال تؤسس مراكز الفكر التي تخدمها وتبسط تمويلها - ومن ثمّ تأثيرها إن لم يكن نفوذها - على الجامعات الأمريكية.

بدأت الحركة تدريجيًا تعادى مشروع روزفلت «الصفقة الجديدة»، أى الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism» ولا تكتفى بتصحيحه أو الانفصال عنه، وقد وجدوا سندًا لهم في أمثال ويليام بكلي الذي أصدر في ١٩٥٥ كتابه المشهور «الله والإنسان في جامعة يال» أدان فيه الجامعة لما رآه فيها من اتجاهات معادية للمسيحية في التعليم، مع تدريسها للاقتصاديات الكينزية، وأصبح بكلي شخصية قومية مشهورة بكتابه ذلك؛ مما مكنه من أن يؤسس في ١٩٥٥ مجلة «ناشيونال ريفيو»، التي صارت بمثابة أول منابر الليبرالية الجديدة.

يقول كروجمان في كتابه:

ويجدر هنا أن نلقى نظرة على الأعداد الأولى من مجلة «ناشيونال ريفيو» لنحصل على إحساس بالكيفية التي بدا عليها محافظو الحركة قبل أن يتعلموا التحدث بحديث مصوغ في إشارات ورموز. فالشخصيات القيادية اليوم في اليمين الأمريكي هم سادة ما يدعوه البريطانيون «علم سياسة صافرة الكلب» أو الكلام المُرَّمَز، فهم يقولون أشياء تستهوى جماعات معينة بطريقة لا تستطيع فهمها إلا الجماعات المستهدفة فقط، وبذلك فهم يتجنبون أن يصير التطرف في مواقفهم واضحًا وضوحًا عامًا. وكما سنرى فيما بعد في هذا الفصل، كان رونالد ريجان قادرًا على أن يعطى إشارة تعاطف مع العنصرية العرقية من دون أن يقول علانية أى شىء عرقى. وكما سنرى فيما بعد في هذا الكتاب، فإن جورج دبليو. بوش [الابن] يستخدم على نحو ثابت لغة تبدو فى أسوأ أحوالها متكلفّة قليلًا لمعظم الأمريكيين، ولكنها مفعمة بالمعنى بالنسبة إلى أشد المتطرفين، المتطرفين المتدينين تطرفًا إلى آخر أيام الدنيا. ولكن مواقف «ناشيونال ريفيو» فى الأيام الأولى كانت تبين بيانًا أكثر انفتاحًا.

وهكذا فى العام ١٩٥٧ نشرت المجلة افتتاحية تحتفى بتصويت تم فى مجلس الشيوخ، كان سيساعد

الجنوب، كما اعتقدت المجلة، على الاستمرار في حرمان السود من حق الانتخاب:

«السؤال المركزي الذي يبرز، هوليس سؤالاً برلمانياً أو سؤالاً يجاب عنه بمجرد مراجعة مسرد حقوق المواطنين الأمريكيين الذين ولدوا متساوين، هو: هل كان المجتمع الأبيض في الجنوب مخولاً أن يتخذ مثل هذه الإجراءات حسب ما يكون ضرورياً ليسيّطر سياسياً وثقافياً، في مناطق لا يهيمن عليها عددياً؟ والجواب الرصين هو نعم، إن المجتمع الأبيض مخول بذلك؛ لأنه في الوقت الحاضر هو العرق المتقدم....»

إن توكيد المعايير المتمدنة والعيش بموجبها أكثر أهمية لأي مجتمع، وفي أي مكان في العالم، من الانحناء لمطالب الأكثرية العددية. وأحياناً لا تستطيع الأقلية العددية أن تسيطر إلا بالعنف: وآئذ يجب عليها أن تقرر إن كانت سيطرة إرادتها تستحق الثمن المزعج للعنف».

و«مسرد حقوق الأمريكيين، الذين ولدوا متساوين» الذي استبعدته الافتتاحية، سيكون هو، على ما يرجح، الوثيقة المعروفة باسم دستور الولايات المتحدة! وما [هو الأمر] الذي كانت تشير إليه الافتتاحية حين تكلمت عن «الثمن المزعج للعنف» الذي قد يكون أحياناً جديراً

بالدفع إذا لم يكن المجتمع يريد أن يتراجع؟ لقد أوضح ذلك ويليام بكلى فيما بعد فى العام ١٩٥٧، فيما كتبه بعنوان «رسالة من إسبانيا»:

«الجنرال فرانكو بطل قومى أصيل. ومن المسلم به عمومًا أنه امتلك - فوق أمور أخرى - مزيجًا من المواهب، والدأب، والإحساس بالحق فى قضيته، وهى الصفات التى كانت مطلوبة ليتنزع إسبانيا من أيدي الواهمين، والأيديولوجيين، والماركسيين، والعدميين الذين كانوا يُفرضون عليها فى الثلاثينيات، وهونظام غريب جدًا إلى درجة يرتكب فيها العنف ضد الروح الإسبانية، وينكر كل شىء حتى هوية إسبانيا التاريخية».

و«النظام الغريب جدًا» الذى طاح به القائد العام فرانيسكو فرانكو، مع مساعدة حاسمة من موسوليني وهيتلر، كان فى الحقيقة هو حكومة إسبانيا المنتخبة ديمقراطيًا.

والطرق التى استخدمها فرانكو لحماية «روح» إسبانيا اشتملت على القتل الجماعى، وعلى إرسال المعارضين السياسيين، وإرسال أى مشبوه بأنه معارض سياسى، إلى معسكرات الاعتقال. ولم يكن هذا كله فى الماضى حين امتدح بكلى الدكتاتور! فكما يلاحظ

المؤرخ پول بريستون، كان خصوم فرانكو «ما زالوا خاضعين لرعب الشرطة والإعدام»، حتى وقت متأخر من السبعينيات.

فى نصف القرن الذى مر منذ نشر تلك المقالات، تعلم محافظو الحركة أن يكونوا أكثر حذرًا. فى هذه الأيام يزعمون أنهم أبطال الحرية والاختيار الشخصى.

ولكن الحركة من البداية كانت غير ديمقراطية بشكل عميق، وكانت مهتمة فوق كل شىء بالدفاع عن الدين والملكية. فالفصل الأول من كتاب «الله والإنسان فى جامعة يال» ينتقد الجامعة بشدة لعدم كونها «موالية للمسيحية»، والفصل الثانى كان معنوناً «الفردية فى يال» كان هجوماً بشكل رئيسى على الأساتذة الذين درّسوا الاقتصاديات الكينزية - صفحة ١١١، ١١٢، ١١٣.

لم تكن «ناشيونال ريفيو» إلا الخطوة الأولى فى بناء - و/ أو شراء - نخبة المفكرين الذين يؤيدون ذلك الاتجاه ويخدمونه.

واعتمدت الحركة على التمويل السخى من أثرياء الولايات المتحدة، الذين يطمعون فى ضرائب وأجور وقيود أقل، ليجنوا أرباباً أكبر.

قاد الحركة ميلتون فريدمان من جامعة شيكاجو، وإيرفينج كريستول - اليسارى سابقاً والذى أصبح الأب الروحى لها - وأنشأوا مؤسسات فكر مثل «الصالح العام - Public Intrest»، و«معهد

المشروع الأمريكي - American Enterprise Institute، و«بروسبيكت-Prospect»، وبعد ذلك «مؤسسة التراث-Hertiage Foundation» وصار تأسيس مراكز الفكر التي تخدم تلك الحركة أمراً مربحاً؛ إذ مولتها كثير من المؤسسات التي تربع على قمة قائمة فورتن لأغنى ٥٠٠ شركة في العالم.

زاد زخم الحركة بحصول هايك على جائزة نوبل في الاقتصاد في ١٩٧٤، ثم حصول فريدمان عليها في ١٩٧٦، وصادف ذلك دخول الاقتصاد في كساد، وارتفاع التضخم لتصبح فائدة البنوك سالبة، وهنا أصبح «على الطبقات العليا [الثرية] التحرك بشكل حازم وحاسم لحماية نفسها من الإبادة السياسية والاقتصادية» بكلمات هارفى - صفحة ٣٣.

جاء فولكر رئيساً للاحتياطي الفيدرالى الأمريكى، فاهتم بالقضاء على التضخم أكثر من البطالة، فانخفاض التضخم يفيد الثروة ورأس المال، بينما انخفاض البطالة يفيد بسطاء الشعب، وبدأ التخلي عن سياسات كينز التي أخرجت أمريكا من أزمة ١٩٢٩، والتي صنعت أكثر فترات التاريخ الأمريكى مساواة وعدالة اجتماعية لمدة أكثر من أربعة عقود، وبدأ المد المعاكس فى زيادة اللامساواة وزيادة ثروات الأغنياء مع زيادة بؤس الفقراء، وعودة أمريكا التقليدية، أمريكا القرن التاسع عشر، والثلث الأول من القرن العشرين .

ولكن لم تكن أموال الأثرياء والمؤسسات الأغنى، مع مراكز الفكر والجامعات التابعة لها، وتبشيرها بجنة الليبرالية المعاصرة

«Neo Liberalism» تكفى، كان لا بد من الاعتماد على قاعدة شعبية، ولا بد من التمثيل السياسى.

وبكلمات هارفى:

كان الحزب الجمهورى^(٣٠) بحاجة إلى قاعدة انتخابية صلبة لاحتلال مواقع السلطة بشكل فاعل، وفى تلك المدة تقريبًا سعى الجمهوريون إلى التحالف مع اليمين المسيحى^(٣١).

وفى هذه الفترة، جاءت تاتشر فى بريطانيا، وجاء ريغان فى أمريكا.

بدأ عهد جديد فى الحركة بوصول تاتشر وريغان للحكم، فقادا حكومتهما لآفاق جديدة، وبالطبع عمل صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى على نشر النظرية التى أشار إليها هارفى سابقًا فى صفحة ٤٧، والنظام الذى تنادى به، وصاحب ذلك تيار العولمة.

ريغان وتاتشر وبول فولكر

وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى والخزانة الأمريكية

قاد الثلاثى الأول عالم الاقتصاد النيوليبرالى منذ بداية ثمانينيات القرن الماضى، وكانت أدواتهم مؤسسات الثلاثى الثانى.

(٣٠) حامل الفكر المحافظ الجديد «Neo Conservatism» الذى تشارك معه فى بعض القضايا الفكر الليبرالى الجديد «Neo Liberalism».

(٣١) يمثل اليمين المسيحى أكثر من ٤٠٪ من سكان أمريكا، والأصوليون منهم حوالى ٣٧٪، انظر كتاب «أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا» - صفحة ٣٦٢، «كيف نفهم الأصولية الإيفانجليكية؟» والكتاب الأول من منشورات مكتبة الشروق الدولية والمجلس الأعلى للثقافة، والثانى مكتبة الشروق الدولية.

وهذا الثلاثي، استطاعت الولايات المتحدة باتباع سياسة الترغيب والتهيب، أو العصا والجزرة، الضغط على كثير من دول العالم - أو اصطيادها - لاتباع النيوليبرالية.

أغفل الفكر النيوليبرالي استخدام فكرته السابقة عن عجز أى حكومة عن جمع بيانات كافية، لتضع بها خطط كافية لتنشيط الاقتصاد، ورأى أن بمقدور الصندوق والبنك جمع بيانات كافية عن العالم، ووضع النظام المالى والاقتصادى الذى يصلح لمختلف دول العالم!.

ريجان جمهورى محافظ حتى النخاع، وكذلك تاتشر رئيسة حزب المحافظين البريطانى، وفولكر جاء فى آخر أيام كارتر ليضع أولويته الأولى ثروات ودخول الأثرياء على حساب البطالة ومصالح الطبقة الوسطى وما دونها.

يروى كروجان فى كتابه «ضمير ليبرالى» من خطاب مشهور لريجان فى عام ١٩٦٤ نيابة عن جولدواتر - مرشح الرئاسة الخاسر - هاجم فيه العون المقدم للأسر التى تضم أطفالاً قُصّر «بقصة عن امرأة لها سبعة أطفال أرادت الطلاق لأن شيكها سيكون أكبر من راتب زوجها، وهى قصة زعم أنه سمعها من قاضٍ لم يسمه فى لوس أنجلوس!». وأظهر ريغان قسوة قلب لافتة بقوله: قيل لنا منذ أربع سنوات إن ١٧ مليون نسمة كانوا يأوون إلى الفراش جوعى فى كل ليلة - وهو يشير فى هذا إلى قول الرئيس

جون كنيدي - وقال ريجان: حسنًا.. من المرجح أن ذلك كان صحيحًا..
لقد كانوا جميعًا يتبعون حمية [ريجيا^(٣٢)]» - صفحة ١١٤، ١١٥.

برع ريجان كرئيس، وتبعه في ذلك جورج بوش الابن، في حشد
قوى أصحاب الأعمال الكبرى، مع الواسط «الأنجلو ساسكون
بروتستانت البيض - White Anglosaxon Protestant»
وبخاصة اليمين المسيحي، مع المجمع العسكري الصناعي، بإثارة
مخاوفهم من الاتحاد السوفيتي - إمبراطورية الشر^(٣٣) - وخسارتهم
ممتلكاتهم وأموالهم، ورفع الكتاب المقدس في يده قائلًا ومكرّرًا: في
هذا الكتاب حل مشاكل أمريكا.

أما الفقراء، فقد كرر وأكد أن اللوم يقع عليهم، فهم مسئولون
عن فقرهم بسبب تقاعسهم في حق أنفسهم، وهو قول تقليدي قديم
في أمريكا، وكرر وأكد أن خفض الضرائب على الأثرياء وأصحاب
الدخول العالية هو الوسيلة الرئيسية لتنشيط الاقتصاد، وذلك طبقًا
لحكممة النيوليبرالية التي تقول بأن ازدياد ثروات الطبقة العليا، سيؤدي
حتمًا إلى انسكابها لتصب على من تحتها، وأنه لا بد من وجود نسبة بطالة
حتى تنضبط الأجور وتخرج أفضل طاقات العمل^(٣٤).

(٣٢) عاينا مثل هذا التكبر والاستهتار بأحوال الفقراء في أقوال عائلة مبارك ومن حولهم:
الشعب المصري لا يريد أن يتحرك - المصري عايز يقعد جنب أمه - المصريين عايزين
ياخدوا كل حاجة من غير ما يشتغلوا - المصريين اتعودوا على الشكوى.
(٣٣) أما بوش الابن فوضع الإرهاب الإسلامي وعلى قمته بن لادن بدلًا من الاتحاد السوفيتي،
وأعلن عن حرب مفتوحة المكان والزمان ضده، مع رفض لتحديد المقصود بالإرهاب.
(٣٤) اقتبس حسنى وجمال مبارك كثيرًا من ذلك التوجه في العشرين سنة الأخيرة.

عاد ريجان بأمريكا لتسلك سبيل اللامساواة المتفاقمة الذى سلكته طوال تاريخها، باستثناء فترة فرانكلين روزفلت وبرنابجه «الصفقة الجديدة» والعقود الأربعة أو الخمسة التى تبعته.

أفاض باحثو مراكز الفكر وأساتذة الاقتصاد النيوليبرالى فى تأكيد أن أزمة ١٩٢٩ كان سببها الرئيسى تدخل الحكومة، مخالفين كل المعلومات التاريخية الصحيحة عن تلك الفترة، والتى سخر منها فرانكلين روزفلت قائلاً كيف تكون أفضل حكومة هى الحكومة التى لا تبالى بالشعب؟!.

وأفرد پول كروجمان فصلاً فى كتابه سماه «الافتراق الكبير»، فصل فيه أثر السياسة النيوليبرالية فى العودة القوية لتلك اللامساواة المتصاعدة، وقد عاين وقاسى الشعب المصرى آثار السياسة المثيلة التى طبقها جمال مبارك والعصابة التى جمعها حوله، حتى إنها مثلت أحد الأسباب الرئيسية لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

توالت أزمات تطبيق النيوليبرالية فى أمريكا الجنوبية وآسيا، وظهرت مأس وانهيارات أصابت الدول التى: «حررت الاقتصاد»، والتى اتبعت «إجماع واشنطن^(٣٥)»، والتى «أعادت هيكلة الاقتصاد»، و«تبعث رويشة البنك الدولى الإصلاحية»، و«نفذت برامج التكيف البنىوى للاقتصاد»، و«حررت أسواق المال بامتياز» كوارث اقتصادية واجتماعية، وأمثلة لها: المكسيك - الأرجنتين - شيلي - تايلاند - إندونيسيا - ماليزيا.

(٣٥) إجماع واشنطن: يمكن تلخيصه فى البنود الآتية: خفض عجز الموازنة (وهذا لا تعمل به حكومة واشنطن) - تحرير الأسواق للتجارة (وهذا أيضاً تخالفه واشنطن إذا احتاجت لذلك مثلاً فعلت فى الصلب) - تحرير حركة رؤوس الأموال من أى قيود - تنمية اقتصاد يتجه للتصدير (وازدادت أمريكا أعلى من صادراتها).

والجدير بالذكر أن أولى الدول في جنوب شرق آسيا خروجًا من أزمة ١٩٩٧ - ١٩٩٨ كانت ماليزيا التي رفضت رويشتة علاج البنك الدولي وعملت بعكسها.

أما أمريكا نفسها ، فقد ساءت أحوالها الاقتصادية بنهاية فترة جورج بوش الابن ، حتى فضلت رئيسًا أسود^(٣٦) على المرشح الجمهوري الأبيض؛ لأن غالبية الشعب الأمريكي رفضت نتائج النظام الذي وضع بذرتة ريجان، ولم يستطيع كليتون الخروج عنه، بينما يحاول أوباما الآن إصلاحه.

وجدير بالذكر هنا ثلاث شهادات أمريكية عن النيوليبرالية:

أولاً كتاب صدر لأستاذ الاقتصاد الأمريكي الحاصل على جائزة نوبل د. جوزيف ستيجليتز، بعنوان: «السقوط الحر (الانهيار): أمريكا، الأسواق الحرة، وغرق الاقتصاد العالمي - Free Fall: America, Free Markets, and the Sinking of the World Economy».

وكذلك كتب مقالاً في مجلة «فانيتي فير» عن آثار تحرير الأسواق في أمريكا: ١٪ يحصلون ربع الدخل ويكدسون ٤٠٪ من الثروة، وربط تلك اللامساواة الهائلة بالتطرف اليميني والعنصري في أمريكا^(٣٧).

(٣٦) عندما أراد أوباما تعيين قاضية من أصل إسباني (لاتينو)، اعترض بعض الجمهوريين بحجة أنها عنصرية ضد البيض، وأفلت تقدير عن نسبة أصوات أوباما بين ذوي الأصل الإسباني، أظهر أنها حوالي ٩٠٪، وبالطبع يمكن استنتاج أن أصوات كل الملونين (الإسبان والسود والآسيان) بالإضافة للمسلمين، كانت بنفس النسبة أي حوالي ٩٠٪، وهم يقاربون ٤٠٪ من الشعب الأمريكي، ويعني هذا أن البيض صوتوا لصالح ماكين بنسبة حوالي ٦٠٪.

(٣٧) ألقى جوزيف ستيجليتز محاضرة بمكتبة الإسكندرية في أغسطس ٢٠١١، قال فيها إن الاقتصاد الليبرالي الجديد فشل، وانتقد سياسات صندوق النقد والبنك الدوليين، وقد نشرت الأهرام مقتطفات من أقواله في الصفحة ٢١ لعدد ١٣ أغسطس ٢٠١١.

والثانية لجيمس بيكر، وزير الخارجية الأمريكي الأسبق قال فيه:
لولا القوة العسكرية الأمريكية، واستخدام العالم للدولار كعملته
الدولية لأفلست أمريكا. وهذا التصريح نشرته جريدة الأهرام في ٣٠
أبريل ٢٠١١.

وثالثها تصريح أدلى به جرينسبان، رئيس الاحتياط الفيدرالي الأمريكي
السابق بعد أزمة وال ستريت الأخيرة، قال فيه: إنى أرى الصرح الذي
بنيناه ينهار^(٣٨).

ويحق للمرء أن يتعجب أن حكومة ما بعد الثورة - طبقاً لتصريحات
الوزير السابق سمير رضوان - ما زالت تقتدى وتتبع النموذج النيوليبرالي
في الاقتصاد، حتى إن الوزير صرح مرة: لا ردة عن نظام السوق الحر...!
أى إن من يختار نظاماً اقتصادياً مختلفاً عن النيوليبرالية، يكون بمثابة
من يرتد عن دينه! ويعترض على الضرائب المتصاعدة قائلاً: ده كلام
مصاطب! وأيده في ذلك فوراً مؤسس أحد الأحزاب الليبرالية الجديدة
قائلاً: إن حزبه يرفض الضرائب المتصاعدة!.

(٣٨) تحمل الشعب الأمريكي أعباء عبث وطمع رجال المال في وال ستريت، كما تحملها
من قبل أيام أزمة القروض والمدخرات (S & L) تحت حكم ريغان. وجاء في تقرير
الأزمة المالية - الذي أشرنا إليه سابقاً - أن القطاع المالى حصل على ٢٧٪ من إجمالى أرباح
المؤسسات الأمريكية!

٣- الليبرالية الثقافية

جوهرها هو حق كل شخص في التحرر من أى قيم ثقافية أو دينية، وأن يفعل ويقول ما يناسبه، ما دام لم يسبب ضررًا لأحد بذاته، ولا اعتبار هنا للمجتمع، فحسب قول تاتشر لا يوجد شيء اسمه المجتمع. تنادى بحرية العقيدة، فلكل شخص الحق في اتباع الدين الذى يريده، أو عدم اتباع أى دين على الإطلاق.

وتنادى بحرية ممارسة الجنس، وحرية تشكيل الأسرة بزواج الرجال وممارستهم الجنس معًا، وبزواج النساء وممارستهن الجنس معًا.

كذلك تنادى بحرية الحامل في إجهاض نفسها، وبالطبع تنادى بحرية تناول المخدرات.

تعارض الليبرالية الثقافية أى نوع من الرقابة، سواء كانت على الكتب أو المسرح أو السينما والتلفزيون، وعلى كل أنواع الفنون وما يُسمى «الآداب الإباحية!» بصفة عامة.

٤- الليبرالية الإمبريالية

هذه الإمبريالية الطريفة، التى يعنى عنوانها الإمبريالية التحررية، هى عنوان مدخل جاء فى قاموس برويرز بوليتيكس، يتحدث عن أعضاء البرلمان الإنجليزى الليبراليين الذين أيدوا الإمبريالية، ونصه:

«هم أعضاء البرلمان الذين أيدوا التوسع الإمبريالى البريطانى - دون أن يذهبوا بعيداً فى ذلك مثلما ذهب جوزيف تشمبرلاين - وأخذوا جانب المحافظين من أمثال إسكويث، إدوارد جراى، وآر. بى. هالدان، وكان أكثرهم بروزاً وتصميماً على الإمبريالية اللورد روزيرى».

وجدير بالذكر أن تلك الليبرالية الإمبريالية اعتمدت على قاعدتين أساسيتين: البروتستانت أصبحوا شعب الله المختار، وبقية العالم مُستبعد من اختيار الله، والثانية هى داروينية البقاء للأصلح، والتى نسج منها بعض العلماء نظريات عن تفوق العرق الأبيض.

ومن هاتين القاعدتين، سك الإمبرياليون عدة مفاهيم لاستباحة الآخر - أرضه، ماله، عمله، وإذا لزم الأمر نفسه - حمل الرجل الأبيض، مسئولية الرجل الأبيض، نشر المسيحية، نشر الثقافة المسيحية.

الخلاصة

إذا أردنا وصف النيوليبرالية، أو الليبرالية المعاصرة بكلمات قليلة، يمكننا القول بأن قلبها وعقلها حرية الفرد، والفردية، قبل أى شيء، وبالتأكيد قبل المجتمع، وقول تاتشر مشهور: وليس هناك شيء اسمه المجتمع، ولذلك فإنها لا تهتم كثيراً بالمساواة ولا تهتم طبعاً بالعدالة الاجتماعية، بل ترفض كل ما يُقيد الحريات الاقتصادية والمالية حتى لو أدى إلى ثراء القلة وفقر وبؤس الكثرة، وإنها والديمقراطية ليستا على وفاق تام، فهي لا ترضى من حكم الأغلبية أن يمس حرية الفرد ولا أن يهتم بالجماعة على حساب الفرد.

ونقتبس هنا رأى أكاديمي عن حال الليبراليين في مصر والعالم العربي، من خاتمة الدراسة التي قدمتها الأستاذة الدكتورة أميمة عبود لمؤتمر «مستقبل الليبرالية في العالم العربي» الذي عقده مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة في ١٦، ١٧ مايو ٢٠١١، وجاء فيها:

في ضوء ما سبق وفي إطار تقويم الورقة لمستقبل الخطاب الليبرالي في العالم العربي، نجد أن الخطاب الليبرالي العربي قد ظل يكرر ويعيد المفاهيم والأفكار الليبرالية التقليدية التي أصبحت في مجتمعاتها محل مراجعة وإعادة نظر من ناحية، ويروج للأفكار المرتبطة بأجندة المصالح السياسية الغربية، والأمريكية على وجه الخصوص، من ناحية أخرى^(٣٩).

(٣٩) على سبيل المثال نشرت جريدة الشروق في ٨ / ٧ / ٢٠١١ في الصفحة الثالثة عن =

= دراسة لمعهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى تنصح بضرورة مساعدة المنظمات التي تدرب الليبراليين حتى يستطيعوا منافسة الإخوان في الانتخابات، وإبعاد هذه الأحزاب عن التحالف مع الإسلاميين.

بينما نشرت جريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١١/٦/١٩ قول بلير: أدعو مصر إلى تأجيل الانتخابات، والإخوان هم المستفيدون من الاستعجال. صفحة ٣.

ما سبق مثالان من أمثلة عديدة تبين وتؤكد هذا الاتجاه. ومن العجيب أن بعض القوى السياسية المصرية تشكو للدبلوماسيين والسياسيين الغربيين من قوة الإخوان المسلمين وحسن تنظيمهم، حتى إن أولئك «الضيوف» شكوا من تلك الشكوى! وهكذا جاء عنوان عامود سلامة أحمد سلامة في جريدة الشروق عدد ٣٠ مايو في صفحة ٣.

وجاء في أهرام ١٨ أغسطس ٢٠١١، الصفحة التاسعة:

سفير بريطانيا الجديد للأهرام: ... الأفضل عدم مزج الدين بالسياسة.

بينما نشرت المصري اليوم بتاريخ ٨/١٨، الصفحة الثالثة:

المعونة الأمريكية تكشف: أخطرنا السلطات المصرية أننا سنوزع ١٦٥ مليون دولار على الجماعات المؤيدة للديمقراطية.

وفي عدد ٨/٢٤ على الصفحة الخامسة:

الكونجرس يهدد بقطع المساعدات عن مصر إذا ألغيت معاهدة السلام... مستوى مشاركة جماعة الإخوان المسلمين في الحكومة الجديدة له تأثير على المساعدات الأمريكية لمصر، موضحة أن حجم الدور الذي ستلعبه الجماعة في الحكومة المصرية المقبلة وسيطرته على السياسة العامة للبلاد سيحدد مستوى المساعدات الأمريكية.